ليليان

obeikandl.com

الكتاب : ليليان
المؤلف : محمد عبد القوي مصيلحي
الناشر : ن للنشر والتوزيع
Noon_publishing@yahoo.com
ت – 02-35860372   011-27772007
رقم الإيداع : 2013/10921
الترقيم الدولي : 978-977-6436-22-0
الطبعة الأولى : 2013
تدقيق لغوي : أحمد عبد المجيد
تصميم الغلاف : محمد عبد القوي مصيلحي

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

obeikandl.com

ليليان

رواية

مُحَمَّد عَبْد القَوي مُصِيلْحِي

للنشر والتوزيع

obeikandl.com

obeikandl.com

الإهداء

إلى ذلك الرجل، الذي استهلكني نفسيًا، وعصبيًا، وعلى كافة الأصعدة. والذي شاركني طعامي، وأحلام نومي، ومقعدي. والذي يراقبني الآن من حيث لا أراه.. وأعلم يقينًا أنه يقرأ هذه الكلمات، ولا أخشى هذه الحقيقة..

أهديه هذا الكتاب، لعله يرضى بتركي وشأني..

إليك يا دكتور سمير درويش!

obeikandl.com

obeikandl.com

"العاشق لا يعرف اليأس أبداً.. فكل شيء ممكن للقلب المغرم!"

جلال الدين الرومي

obeikandl.com

obeikandl.com

مُبْتَدَأ

حكاية قرية هادئة، صارت أكثر هدوءًا!

لا تهمنا معرفة المكان إلى حد كبير. لما هذا الاهتمام الجنوني بمكان وقوعِ الأحداث، الذي ربما كان يفوق اهتمامنا بمعرفة الحدث ذاته؟! على كل حال هي بلدة صغيرة باردة، أواسط الساحل الجنوبي لبحر الشمال. ربما كانت تقع في فنلندا أو النرويج، ربما كانت سويسرا. لا أحد في البلدة يعلم على وجه الدقة، أو يهتم، المهم أنها موجودة، وكذلك الكثير من الثلوج، والقليل – أقل القليل – من الفِراء، من الأكواخ، من الذئاب البيضاء، من الأسماك ومن البشر الذين تشبه عيونهم عيون الأسماك.

الزمان: بداية العقد الأخير من القرن السابع عشر، أو ربما كان الأول من الثامن عشر.

الحدث: لا شيء! بكل تأكيد، منذ خلق الله الحياة على هذا الكوكب العجوز، وإلى قيام الساعة، ستظل الأشياء تحدث، ولن يتمكن مخلوق من إيقافها، ولكن هنا، في مثل هذا المكان، والآن، في مثل هذا الزمان الذي ليس كمثله زمان، ليس من المعتاد ولا المتوقع ولا المستحب أن يحدث أي شيء!

الحياة هادئة، أكثر مما ينبغي ربما. لدينا هنا – على الرغم من فقرنا الواضح، وحاجتنا الدائمة إلى الحطب والنبيذ، كل شيء. نحن نعتبر أنفسنا أغنى أهل الأرض، والسبب أننا نتمتع باكتفاء ذاتي لا حدّ له، فالدببة تمنحنا الفراء مجانًا. صحيح أنها لم تعد وفيرة العدد، لكننا كذلك لا نتكاثر بالسرعة التي تظنها. كنت في شبابي أؤمن بأن هذا الكم المهول من الثلوج، قادر على تجميد كل شيء، إلا المشاعر الإنسانية.. الآن أؤمن أنه ليس من العيب أن نعترف بخطأ معتقداتنا القديمة!

لذا يمكنك تخيل أن كل حالة وفاة لدينا، تقابلها حالة أو اثنتين – على أقصى تقدير – من المواليد، وهو معدل، بالكاد، يضمن حمايتنا من الانقراض.

الغابات من حولنا لا تنتهي، أشجارها أبدية، لكنها غالبًا خضراء طرية، لا تصلح أن تكون حطبًا جيدًا، ليس في وقت قطعها على كل حال. لدى كل منا كوخه، وزوجته، وحربته الخشبية التي يصطاد بها الحيتان الصغيرة، وهذا طبعًا بغرض التغذي وليس التجارة إن كان هذا قد جال بخاطرك.

يمر من أمامي أحدهم، مدَّثرًا كالعادة بفرائه الكثيف – أعنى فراء الدب الذي اصطاده، هو أو أحدهم – وهو يمسك حربته متجهًا نحو المياه..

"تحية يا أبتاه.. هل أحضر لك سمكة معي؟"

"من أنت أيها الفتى؟"

"أنا ابن سيتجوود الحمّال.. و الآن ما رأيك في سمكة صغيرة طازجة؟"

"لا مانع، بالفعل لدي الكثير من الأسماك المملحة، ولكن لا بأس بسمكة إضافية صغيرة، نحن في بلد لا تتعفن فيها الأسماك على أي حال"

يرمقني في بلاهة غير فاهم..

"تت ماذا؟! ما معنى تتعفن هذه يا أبتاه؟"

"لا عليك، لم يزل لديك المديد من العمر، لتتعلم الكثير من الأشياء. هلم، احضر طعام الغداء بلا تأخير"

احترامًا لصِفَتي، هز رأسه وانصرف دون كلمة، فأنا لهم بمثابة أب روحي. لست طوطمًا أو معبودًا وثنيًا، فنحن نعرف المسيح جيدًا، ولكن يمكنك اعتبار أن كوني أكبرهم سنًا، جعل مني بالنسبة إليهم، رمزًا تراثيًا، يحترمونه ويحبون وجوده ويثقون به. اسمي بالمناسبة هو (رو الكبير).

قبل أن يقاطعنا هذا الفتى كنا نتكلم عن..

التجارة، لقد كففنا عنها منذ زمن طويل جدًا، منذ آخر تواصل بيننا وأي من البلدان المجاورة أو البعيدة. بكل تأكيد، لم نجرب الزراعة ولا نعرف ما هي، وإن كنا نسمع أحيانًا أن هناك قومًا، في الجنوب، يفعلون. هؤلاء لديهم ثلوجٌ صفراء وحمراء وسوداء.. وغالبًا ما تكون دافئة!

ويقال أيضًا، إمعانًا في الأسطورية، إن البحر لديهم مسكَّرًا وليس مالحًا كبقية بحار الدنيا! نحن نعتمد في مشربنا على المياه الجوفية الدافئة، أو إذابة الجليد، لذا لن تجد بيننا من يمكنه تصديق، أو تخيل وجود نهر من الماء العذب، في الفردوس فقط توجد هذه الأشياء. لكن العائدين القلائل يؤكدون هذه الحقائق ويسلِّمون بها. لن يدهشني لو كان هنالك قوم ذوو

ستة أذرع، أو يسيرون قفزًا على رءوسهم بالمقلوب، أو حتى كانوا ذوي بشرة سوداء كالفحم. لن تنتهي العجائب من هذا العالم!

هذه هي حياتنا منذ مئات السنين، ولأنها حياة هادئة، أكثر مما ينبغي، كان من المذهل في رأيي الخاص، أن يحتملها أو يرضى بها إلا شخصًا نشأ وتربى بها منذ نعومة أظافره، وبالتالي ستجد أنه من المستحيل، بل ومن الخارق للطبيعة، أن تستقبِل بلدتنا الجميلة فتى وفتاة غريبين عنها، خاصة لو كانا قد أتيا بغرض الإقامة المستديمة.

*****

"متى تنويان الرحيل؟!"

تحدث الفتى بتلك اللغة العجيبة، التي لم أفهم منها حرفًا، ويبدو أنه هو الآخر لم يفهم سؤالي, لأن تعبير وجهه كان ينم عن استفهام وليس عن ثقة. أما الفتاة الحسناء، جدًا لو أردت رأيي، فتأملَت عينيّ للحظات بشكل جريء مقتحم، لم تسمح لي سنوات عمري التي جاوزت التسعين، بأن أعتبره نوعًا من الإعجاب. ثم قالت بذات لغتي:

"لا ننتوي الرحيل يا أبتاه، إن لم يكن يزعجكم وجودنا قَطعًا"

أدهشتني إجابتها الواثقة المباشرة المهذَّبة، لكنني لم أهتز، وتمكنت من كتمان مشاعري قائلاً:

"المشكلة أن الإزعاج لن يكون من نصيبنا نحن، صغيرتي الحسناء"

استشعرتُ شجاعة وصدقًا في لهجتها إذ قالت:

oneikanai.com

"اطمئن يا أبتاه. لست الفتاة الرقيقة المرفَّهة التي تتصوّر. لقد عانيتُ كثيرًا، وعشت في بيئات أشد قسوة. بل إنني خضت من المعارك أشرسها، وأكثرها دموية مما لن يمكنك تخيله. ثق أنني قوية بما يكفي، لحماية نفسي وصديقي وأهل البلدة أجمعين لو تطّلب الأمر، وعلى فكرة: لديّ العديد من الهدايا لكم، أشياء سوف تحبونها كثيرًا، ولسوف تعتبرونها معجزات لأجيال كثيرة قادمة. يمكنكم الاعتماد عليّ بشكل كامل، كل ما أنشده فقط هو مكان يأوينا، وأهل"

هذه المرة، لم أتمالك نفسي من إبداء دهشتي، لكنها استدركت بلهجة تحذيرية:

"هذا في حالة ما لم يكن مصدر الإزعاج هو أهل البلدة ذواتهم!"

*****

"إلى متى سنظل هاربين هكذا؟ ألم يحن وقت الاستقرار بعد؟"

في كوخهما الثلجي، التفتت إليه وتأملته قليلا قبل أن تقول:

"وماذا نفعل هنا برأيك؟"

"ومن أدراك أنهم لن يتوصّلوا إلى مكاننا هنا؟"

قالها مرتجفًا، فقالت بنعومة:

"خائف؟!"

"لأقصى حد! ولكن ليس على نفسي، بل عليك أنتِ.."

"لا تخف، أنت تعلم أنني قوية بما يكفي للتغلّب عليهم.. ألستُ كذلك؟"

"بلى، ولكنهم في كل مرّة كانوا يستطيعون التوصل إلى مكانك، وأخشى أن يتمكنوا من اللحاق بنا إلى هنا، و.."

لم يستطع إتمام عبارته لفرط انفعاله، فمسحت فوق رأسه في حنان:

"أمازلت تحبني؟"

"أنت تعلمين"

"حتى بعدما علمت أنني أعطيتك وصفة سحرية للحب؟!"

"لست أدري لما بذلت كل هذا الجهد؟ فأنا واقع في هواكِ بالفعل، إلى أقصى مدى.."

فارقته وتمشت في أرجاء الكوخ، وقالت بحزن:

"كان لابد من ذلك، فأنت نقطة ضعفي الوحيدة.. ولم تكن لتقبل بي لولا أن فعلت ذلك. أنت تعلم كم أحبك، من غير المنطقي أن تقع من هي مثلي في الحب، ولكن هذا ما حدث بالفعل. هل كان يمكن أن أضيع فرصتي الوحيدة برأيك؟"

تقدم نحوها متعاطفًا..

"وهل سبق أن رفضت حبك من قبل؟"

دمعت عيناها وهي تهز رأسها إيجابًا:

"لقد خفت منّي، وقررت الابتعاد!"

احتوى وجهها بين كفيه..

"هل أنت واثقة من أنني فعلت هذا الجرم؟"

هزت رأسها ثانية، فرفع وجهها إليه وهو يمسح دموعها مبتسمًا..

"أنا على أي حال لا أذكر حرفًا مما قلتِ، أشعر أنني أحبك منذ ولدتُ. ما رأيك إذن؟"

تمكنَت من رسم بسمة على شفتيها الرقيقتين، فتابع..

"رجاء، لا تثيري هذه النقطة مجددًا، أرجوك"

"حاضر"

"لديّ رجاء آخر أشد أهمية، لو كان هذا الكلام صحيحًا، فلا تحاولي إبطال عمل هذه الوصفة، لا أستطيع تخيُّل شكل حياتي بدون حب هذا الملاك الرقيق الذي هو أنت، ولن أتحمَّل الفراغ الرهيب الذي سيجتاح عالمي لو قررتِ الابتعاد"

ألقت بنفسها بين ذراعيه، وأسبلَت جفنيها هامسة:

"لن يحدث، إنها لعنة أبدية رغمًا عن إرادتينا.."

مال عليها، وأطبق على شفتها العليا شفتيه، في تلذذ وافتتان. فضيّقت من حول خصره عقدة ذراعيها بنعومة، حينها تصاعدت الطرقات الهادئة على باب الكوخ، فخرجت من بين ذراعيه في الحال، وابتعدت خطوتان، قبل أن تهتف بحزم:

"من بالباب؟"

"ومن يجرؤ على طرق باب هذا الكوخ، غير رو الكبير يا بنيّتي؟"

رسمت فوق وجهها تعبيرًا رسميًا..

"تفضل يا أبتاه، الباب مفتوح"

ببطء وكياسة، دخل رو إلى المكان..

"معذرة، لكني أردت التحدث إليك قليلاً.."

"ماذا لديك؟"

تقدم منها وهو يبتسم في غموض..

"مفاجأة!"

"هل قلت: مفاجأة؟!"

"بل اثنتين في الواقع. أنت تعيشين بيننا منذ شهر واحد، لكنك قدمت للناس هنا خدمات جليلة حقًا، أنت علمتيهم كيف يبنون الأكواخ الثلجية الدافئة من الداخل، وغير القابلة للذوبان، صنَعت لهم الأضواء والألوان، استخرجت لهم الزيت، جففتِ الحطب، وصنعت النبيذ من لحاء الشجر"

"لقد صاروا أهلي، منذ وطئت قدميّ أرضكم البيضاء"

"هل تعلمين ماذا يطلق عليك أهلك؟ إنهم يدعونك (هدية السماء)، ولأنهم أحبوك كثيرًا، فقد عملوا سويًا على إعداد هدية تليق بمقامك، وتكون وسيلة للتعبير عن هذا الحب، وأنا هنا الآن كي أصحبك حتى تري هديتك.. هلاّ خرجت معي لرؤيتها؟"

لم تدر لماذا توجَّست، لكنها نجحت في اصطناع بسمة مسرورة..

"الآن؟!"

"بالتأكيد.. الكل مستعدٌ بالخارج، فلم التأخير؟"

*****

خرج رو من الكوخ، ومن خلفه خرجت وفتاها، متشابكي الكفّين. كان مرعوبًا، وكانت مترقبة. أوشكَت الشمس على المغيب، وما من أحد بالجوار، حتى المصابيح كانت مطفأة..

"أين الناس؟"

"عند مدخل الغابة.."

كانت قلقة، لكنها لم تكن خائفة. صحيح أن القمر كان محاقًا، والاتصال كان شبه منعدم، ولكن كل وسائلها الدفاعية كانت تعمل كما يجب، ليس في البلدة غرباء. بالطبع لم يفهموا معنى كونها مجرد عالمة في الرياضيات والكيمياء كما أخبرتهم، لكنهم خمّنوا أنها وظيفة بريئة سامية، وأكد لهم رو هذه الحقيقة، فاطمأنوا. أخبرتهم كذلك أنها فرّت من أهلها إلى شمال أوروبا، وارتحلت لتتعلم وتحمي نفسها من بطش الملك، في زمن كان حرق العلماء فيه وسيلة للتباهي والترفيه عن الرعيّة، ومنذ ذلك الحين لم يكف أهل البلدة عن معاملة الفتاة بلطف واحترام. لكنها كانت تشعر برهبة عجيبة ما لها من تفسير. إلى أين يقودنا هذا العجوز؟ على كل حال لن يتمكن هذا الرجل من إيذائها لو حاول، وحتى لو اجتمع معه أهل البلدة كلهم، لما تغلّبوا عليها.

سارا خلفه، حتى وصلوا إلى مشارف الغابة القريبة. بساط أبيض شديد النعومة، يغطي كل شيء، صار لونه درجة من درجات الرمادي، بفعل انسحاب الشمس إلى ما خلف الأفق، واجتياح الكحلي الموشى بنقاط

obeikandl.com

فضية متناثرة، فاستحالت الأشجار العملاقة إلى أشباح خيالية هائلة الحجم. توقف رو الكبير فجأة، والتفت إليهما مبتسمًا فاتحًا ذراعيه..

"الآن..!"

وفي لحظة واحدة، استحالت الظُلمة الوليدة نهارًا، وكأن الشمس قد وثبت فجأة إلى كبد السماء! عشرات، مئات.. بل آلاف الكرات المضيئة الصغيرة، طَفَت فوق رءوسهم، وظّلت تعلو حتى تخطت مستوى قمم الأشجار. وراحت العديد من الألعاب النارية الملونة، تتفجَّر وتتواثب في الهواء بلا نهاية. لم تصدق عينيها، حين رأت الشرارات اللامعة الملونة تتقارب في السماء بشكل مقصود، وتتجمّع لترسم صورة عملاقة لوجهها الباسم، هناك فوق الرءوس، قبل أن تتفرق كنقاط مضيئة صغيرة، ثم تختفي ليتولد غيرها!

ومن بين الأشجار خرج كل أهل البلدة، نساء ورجالًا وأطفالًا، للاحتفال. كان الكل مبتسمًا يتصايح في سعادة، والمدهش أنهم لم يكونوا يرتدون الفراء. من الواضح أن المكان كله محاط بقُبة عازلة، علّمتهم هي كيف يصنعون مثلها. لم تكن كل تلك الأشياء لتدهشها في الواقع، لكن ما عجزت عن تصديقه هو القدرة الهائلة على الاستيعاب لدى هؤلاء البدائيين. هي علمتهم كيف يصنعون كل تلك الأشياء، فليس السحر كله تعاويذ غامضة وقدرات خارقة، بل إنه في معظمه عبارة عن تطبيقات لعلوم الفلك والكيمياء والطبيعة والنفس. هي علمتهم بعضها، أقل القليل من بعضها.. لكن هذا العمل كان يستلزم تعاونًا كبيرًا. ليس تعاونًا فقط، بل وصبرًا،

وتجربة، وقدرة استيعاب هائلة، واستعداد مهاري.. والأهم من كل ذلك، إخلاصًا عميقًا لما يقومون به. واعترفت لنفسها بأنهم أثاروا دهشتها حقًا، بل وأبهروها.

ومن بين طوفان البشر الذي انقض عليها في سعادة، ظهر رو الكبير ليخلّصها والفتى، ضاحكًا في استمتاع..

"ما رأيك؟ انتظري، ليس هذا كل شيء"

طارت العديد من الكرات المضيئة والتحمت معًا، فوق شيء ما يقف منتصبًا في الظلام، وقد تمت تغطيته بقماش داكن، وأضاءت فوقه شمسًا صغيرة.

"تقدمي، واكشفي الغطاء بنفسك"

احتبست أنفاس القوم انتظارًا لرد فعلها، تناول الفتى كفها وهو يبتسم في سعادة وتشجيع، ويقودها نحو الشيء، وامتدت يدها ببطء وترقب لتسحب الغطاء.. لكنها لم تفعل، لأنه في ذات اللحظة تقريبًا وقعت الكارثة التي قلبت كل الموازين، وغيرت مصير هذه البلدة البائسة إلى الأبد..

*****

الهول..

الرعب، النار، الدم!

إن آخر ما رأت عيون أهل البلدة من صور الحضارة والتطور، كانت الزلاجة المعدنية التي تجرّها الكلاب.. ويومها، منذ شهر تقريبًا، وهي الفترة التي قضتها الفتاة وفتاها في البلدة، منذ جاءا على متنها، أصيب الجميع

بالرعب والفزع، حتى شرح لهم الأب رو الكبير الأمر، فهَدأ روعهم، واستكانوا، ونسوا الموقف بمرور الوقت. ولكن في هذا اليوم،لم يفهم الأب رو الكبير ولم يستوعب ما رأت عيناه، ولا ما سمعت أذناه.. والتفت الكل نحو وجهه طالبين أي تفسير، فلم يروا إلا الخوف والذعر والحيرة.

فجأة تصاعدت أصوات قوية تهدر، وتقترب بسرعة. أصوات حوافر خيول، مختلطة بأصوات هدير صاخب يصمّ الأسماع. وفي لحظة واحدة، وجد القوم عدة عربات هائلة الحجم، ذوات عجلات، وتجرها خيول ليست كمثلها خيول، أحاطت بهم من كل صوب، والجليد يتطاير في الظلام من حولهم كالكابوس.. وفوق العربات كان رجال، ليس كما يبدو البشر! كانوا وكأن الجحيم قد انشق عنهم، ولفظهم، بوجوههم الغاضبة الشرسة، وأحجامهم العملاقة المهولة، وتلك الأشياء الطويلة السوداء في أيديهم، والتي من المؤكد أنها تسبب الأذى والموت. طفقت الفتاة تتأملهم مذهولة، غير مصدّقة، وقد تسمّرت في وقفتها كالمشلولة. بينما قفز الفتى أمامها، ليحول بينها وفوهات الأشياء القاتلة، ودموعه تنهمر في غزارة. كانوا يتحدثون لغة غريبة لم يفهمها أهل البلدة، لكن الأب رو المذعور استطاع على الأقل تمييزها، إنها ذات اللغة التي حاول الفتى التحدث بها يوم وفد إلى البلدة. وليس معنى هذا أنه فهمها، لكنه على الأقل فهم أن هؤلاء الدخلاء قد أتوا من موطن الفتاة وفتاها.

كان من بدا وكأنه قائد المجموعة، يبتسم في ظفر ووحشية.. موجهًا حديثه إلى الفتاة، التي كانت ترد بكلمات حذرة، مما جعلها تبدو وكأنها

تفكر في مخرج من هذا الموقف. وكان الفتى لا ينفك يردد كلمة واحدة أو كلمتين من بين دموعه التي راحت تنهمر في غزارة. وكان الموقف بأكمله غامضًا، عصيًا على التفسير، لكن الأب رو تقدم بشجاعة نادرة من عربة القائد، وشد قامته معتدًا قبل أن بنطق بصوت قوى:

"لا أعلم إن كنت تفهم حديثي أم لا، لكنني على أي حال أحذرك من أن.."

ولم يتم العجوز حديثه، لأن الرجل وكزه في صدره بعصاه السوداء في عنف، ليسقط أرضًا. التف من حوله بعض رجال وشباب البلدة في جزع يعينونه على النهوض. أشار القائد إلى أحد جنوده، ثم صاح بعبارة ما ترجمها ذلك الرجل على الفور.. كان الحديث موجهًا إلى الفتاة، ولكن من الواضح أن القائد أراد لأهل البلدة أن يفهموا ما يقال:

"إنهم قوم ضعفاء مسالمون، ليس من العدل أن يتعرضوا بسببك لكل هذا الهول. من الأفضل أن تأتي معنا في هدوء"

"لابد أنك شجاع بما يكفي أيها القائد.." – ترد الفتاة – "شجاع أو أحمق كي تقف أمامي أعزلًا، إلا من تلك البندقية المضحكة. ألم يخبرك عنّي من أرسلك خلفي؟"

"أخبروني أيتها الجميلة، لكني لست خائفًا منك، يمكنك أن تريني أفضل ما عندك!"

"هكذا إذن؟!"

رفعت يديها نحو السماء، ثم راحت تهمس بعبارات غامضة معقدة. لكنها توقفت فورًا، حين رأت فتاها وقد اختُطف من أمامها، وأحد الرجال يسلط على عنقه سيفًا مخيفًا..

"يمكنني تحويلكم جميعًا إلى حفنة من التراب في الحال، إن حاولتم المساس به"

"سيسعدني أن يتم هذا على يديك أنت بالذات! وسيسعدني أكثر أن يكون آخر ما أقوم به في هذه الحياة، هو جزّ عنق هذا الوسيم!"

ولدقائق تجمد الموقف بين الجميع، ثم في لحظة واحدة حدث ما لم يكن متوقعًا. فجأة، اختفت الفتاة من مكانها، وظهرت خلال لحظة واحدة، خلف رو الكبير تمامًا. والمدهش أكثر أنها أخرجت من ثوبها خنجرًا، وضعته على عنق العجوز المذعور غير المصدق، بينما كل أهل البلدة يرمقونها برهبة ورعب وتكذيب لما يرون..

"أنت بالتأكيد لا ترغب في إيذاء هذا العجوز.. أطلق سراح صديقي!"

"لن ينجح هذا، استسلمي برفق وهدوء"

"سأقتله!"

"قلت: لن ينجح هذا"

"هل تراهن؟"

"لست في حاجة إلى ذلك"

والتفت إلى أهل القرية في أسف..

"معذرة يا قوم، لكن الأوامر واضحة غنية عن التفسير: عنقها، مهما كان الثمن"

قبل أن يفهم أيهّم كلمة واحدة، أصدر القائد إشارة خاصة بيده، خرج على إثرها من العربات أكثر من مئة جندي يحملون البنادق، ويصوّبونها نحو أهل البلدة. ورغم الرعب في العيون، وبرغم صرخات الأطفال والنساء والرجال العاجزين، صدرت الإشارة الثانية، لينتهي كل شيء.

*****

دقائق مرت، وكأنها سنوات كاملة. هدأت الثلوج الثائرة، وانقشع الدخان الناجم عن البارود، ولكن الرائحة لفترة طويلة أبت أن تفارق الأنوف.. رائحة الدخان والدم والموت.

وطفق الفتى يصرخ وينتحب كالمجنون، بينما كانت الفتاة تنظر إلى المشهد بثبات، وقد قطبت جبينها في غضب..

"لماذا؟"

قال الأب رو الكبير في هدوء ذاهل..

"أنت السبب يا هدية السماء. لقد وعدتيني بأن.."

"أمازلت حيًّا؟!"

بووووم!!

هكذا تكوّمت جثة جديدة تحت قدمي الفتاة، بينما قال القائد:

"بالتأكيد لم أحب أن يحدث هذا، لكنه حدث! أنت تعلمين كما أعلم، أنك الآن في أضعف حالاتك، القمر مختفٍ كما تلاحظين، لذا فالاتصال

opeikanal.com

بينك وإياهم شبه مقطوع، وهذا هو الوقت المناسب. على كل حال أنا لم أكن شريرًا إلى هذا الحد، لقد أنهيت متاعب هؤلاء البؤساء إلى الأبد، بينما كان ينتظرهم على يديك مصير أكثر شناعة وهولا.. ثم إن هذه البلدة لم تكن لتصير نهاية رحلتك، بل لقد كانت مجرد بداية، ولكن كل هذا قد انتهى الآن"

لم ترد، فأكمل الرجل:

"في هذه المرة تعلمنا من أخطائنا، واستعنا بساحر مثلك. عفوًا! ليس مثلك، لكنه على الأقل يعرف ما يجب فعله.. تم إبطال عمل دفاعاتك التي أحطتِ بها البلدة، وتم اختيار هذه الليلة بالذات، لسبب سبق وأخبرتك إياه: حالة القمر.. إنها نهايتك"

"أنت واهم، فأنا لم أفقد كل قدراتي بعد. لازلت أعمل!"

ومن بين رجال القائد، سقط أحدهم صريعًا دون سابق إنذار..

"الساحر؟! أشكرك، فقد وفرتِ عليّ ثمن الرصاصة!"

"ماذا تظن أنك فاعل؟"

ابتسم القائد في سخرية..

"ماذا تظنين أنت؟!"

لكنها لم تفكر في إجابة، يبدو أن أحد الجنود من حاملي السيوف قد تسلل من خلفها دون أن تدري، لأن رأسها لم يعد في مكانه السابق!

*****

obeikandi.com

"هل فعلتها حقًا؟! لا أصدق!"

نطق بها القائد مذهولاً..

"هل حقًا انتهت المأساة، وبهذه البساطة؟!"

تخطى الجندي جثتها، وحاذر أن يخطو بقدميه في بركة الدم الآخذ في التدفق، ثم ألقى بسيفه الدامي قائلاً في كياسة:

"أعتقد سيدي القائد أن كل شيء قد انتهى أخيرًا. ولكن، أخشى أن نكون قد ارتكبنا خطأ ما؟!"

التفت إليه قائده في تساؤل، فتابع..

"أعني، لقد أصدر جلالة الملك أوامره بإعدام الساحرة حرقًا كما جرت العادة"

صمت القائد لثوان، متأملا إياه. ثم أشار إليه بالاقتراب، ووضع يده على كتفه، هامسًا بصوت كالفحيح:

"هل تعتقد أن هناك من سيخبره؟"

انتفض الجندي في رعب..

"لا أعتقد، من منا يأمن رد فعل جلالته؟ لكنني سمعته يطلب من جنابك رؤية رمادها بعينيه، بل وطلب ما سوف يتبقى من عظامها لغرض في نفسه لم يبيّنه"

وقع تعبير (يطلب) بدلًا من (يأمر) موقعًا طيبًا من نفس القائد، تفكر حينًا قبل أن يقول..

"لا بأس.."

obeikandl.com

ثم التفت إلى جنوده..

"استعدوا لنصب الوتد. وأنت، أحضر بعض الحطب من العربة.. فقد حان وقت تنفيذ حكم الإعدام.. رسميًا"

*****

لم يطمئن القائد ورجاله، إلا عندما رأوا النيران وهي تلتهم الجثة مقطوعة الرأس. حينها فقط بدا لهم أن هذا الهول، الذي بدأته تلك الشيطانة قد انتهى، وما من سبيل لبدئه من جديد. لكن أحدهم أبدى ملاحظة ما..

"لقد كان ماركو يسلط سيفه على عنق الفتى، رفيق الساحرة طوال الوقت.. فإن كانت هذه هي جثة ماركو، فأين ذهب الفتى إذن؟!"

انطلق بعض الرجال إلى البلدة لمحاصرتها وتفتيش الأكواخ، وانطلق البعض الآخر للبحث بين الأشجار..

"لا توجد مشكلة في ارتفاع قمم الأشجار، بالفعل نحن نعجز عن تسلّقها للبحث عنه بأعلى.. لكن هذا يعني أنه هو الآخر يعجز عن تسلقها للاختباء"

"أيها الغبي، هل نسيت أنه كان صديق الساحرة؟ لا يمكنك توقع ما تعلَّمه على يديها!"

"وما العمل إذن؟"

"احرقوا الغابة!"

obeikandl.com

لكن القدر لسبب ما، لم يمنحهم مهلة لإيجاده، فقد حدث كل شيء بسرعة. رياح خفيفة في البداية هبّت على الغابة، فانطفأت الشعلة الآدمية التي تفحمت عن آخرها. ومع اشتداد الرياح تدريجيًا، بدأ الرماد في التطاير، حتى لم يعد باقيًا منه أي أثر.. ومع تحول الرياح إلى عاصفة، بدأت العظام ذاتها في التفكّك والتناثر قبل النهاية.

النهاية المفاجئة التي أتت، وكأنها لمسة احتجاج أخيرة على اغتيال هدية السماء، أو على هذه الدماء البريئة لأهل البلدة، التي تم إهدارها الليلة، فوق الثلوج البيضاء النقية. وقد أتت في صورة عاصفة ثلجية هائلة الحجم، بدأت في الارتفاع كجدار رهيب، حتى كادت تبلغ عنان السماء. ولم يشفع صراخ الجنود ولا ركضهم المتخبط، وتشبثهم الساذج في عوارض العربات، أو جذوع الشجر، في منع النهاية الحتمية. وأخيرًا هوَت العاصفة، مثل كف عملاق يهوي فوق حشرة دقيقة، بمنتهى القوة.. هبطت فوق كل شيء، وخلال دقائق ثلاث، كانت المسافة ما بين الأرض وسحب السماء المدلهمة الظلمة، عبارة عن بياض لا متناه، وكأن كل ثلوج الأرض قد تجمعت هنا..

وعندما هدأت العاصفة، كان كل شيء قد انتهى بالتبعية، ولم يعد هنالك من أثر لأي شيء بالمرة. لا الجنود وقائدهم، ولا الوتد المحترق، ولا كل جثث أهل البلدة.. ولا الأكواخ والعربات والخيول. وعلى مسافة ثلاثمائة

وعشرة كيلومترات، وهي حدود الغابة، لم يكن هناك من أثر إلا لشيئين اثنين: الشجر، والجليد.

ذلك الجليد الممتد بطول الساحل الجنوبي لبحر الشمال..

وهكذا انتهت أسطورة قرية هادئة أخرى من الوجود وإلى الأبد.. بل هكذا أصبحت أكثر قرى العالم هدوءًا، بلا منازع!

obeikandl.com

البَاب الأوَّل

البَعْث

obeikandl.com

obeikandl.com

تتأمل الكلمات المتراصة أمامها، وتأسرها رائحة الكتاب، وملمس صفحاته، وبريق غلافه الأخاذ، الذي يحمل ملامح وجهها الفاتن، في نظرة تأملية شاردة، يبدو أن المصوّر تعب كثيرًا حتى استطاع نيلها. تقلبه بين أصابعها، وهي عاجزة عن مواصلة القراءة. يتملكها شعور قاس بالوحدة كلما طالعت صفحة أخرى من مذكراتها، وهي التي تصوّرت أن الكتاب هو الوسيلة المثلى للتعجيل بشفائها واستعادة ذاكرتها المفقودة بعد ذلك الحادث المروّع.

تلقي بنظراتها إلى رحلة طويلة غير معلومة المدى، وتحاول اختصار المساحة التي يحتلها البحر الممتد أمامها بالأسفل إلى ما لا نهاية، وكأنها تبغي الوصول إلى الضفة البعيدة، دون أن تنهض من مجلسها في هذا المقعد الخيزراني الوثير الآسر.

تضطر لإنزال العدسات السوداء فوق عينيها الجميلتين، لأن الشمس كانت تتصرف بقلة ذوق متعمدة في هذا الوقت من الظهيرة، على الرغم من انتصاف يناير منذ يومين. ثم يهمس شيطان الكسل في أذنها، لترفع ساقيها وتريح قدميها على المقعد المقابل، وتضع الكتاب فوق حجرها، قبل أن تغمض عينيها زاعمة لروحها أنها تستطيع النوم إن أرادت.

*****

ظلام..!

هواء بارد.. من خلف التل البعيد.. تتصاعد أصوات عواء الذئاب.. مخيفة.. ثمة رجفة مفاجئة تجتاح أوصالها.. هل هو البرد، أم أنه.....!

تلمح الضوء البعيد.. تركض إليه ركضًا أقرب للزحف.. لكنها تصل في النهاية..

مهما كان الطريق طويلاً، كانت ستصل..

فقط لو يكف ذلك الذئب الملعون عن إخافتها..

فقط لو يكف القمر عن احتجابه السخيف..

فقط لو تكف تلك الرياح الباردة عن مداعبة أطراف ثوبها في خشونة..

فقط لو طال عمرها قليلاً..!!

ولكنها رغم كل ذلك تصل في النهاية...........

*****

اليوم، وبعد مرور أسبوعين كاملين على يوم استيقاظها للمرة الأولى، ليلى تفهم ما حدث أو معظمه. لم تتذكر ولكن حكت لها منار وبقية الممرضات بعض الحكايات التي لم ينفها الكتاب. صارت تعرف بعض الأشياء لكنها لا تملك القدرة على التفاعل مع ما عرفته، وكأنها تقرأ عن أخرى.

إن أعظم هدية يمكن لفاقد الذاكرة أن يقدمها إلى نفسه، هي أن يكتب مذكراته احتياطيًا، قبل خوض التجربة. لكن جرسًا لم يدق ومصباحًا لم يومض هنالك. كان الشعور بالعجز يتزايد، والأمل يتضاءل بداخلها، إلا أن نوعًا من الاطمئنان قد تسرب إلى روحها، حين اطمأنت إلى وجود من يرعاها ويقوم على خدمتها باستمرار. إن المستشفى الكبير ملك لزوجها، الذي لم تره بعد، وجميع إمكاناته الطبية والمادية طوع يمينها، وقد اختاروا لها جناحًا ملكيًا يطل على شط المتوسط مباشرة في موقع متميز بالقرب من

محطة سيدي جابر. إن هذا الترف ليمنحها بعض الصفاء المساعد على التفكير والتأمل، ومحاولة استعادة ما فقدته في ظروف يعلمون ولا تعلم عنها أي شيء.

يأتيها من الداخل صوت طرقات خفيفة على الباب، فتعتدل في جلستها وتهتف بصوت مبحوح أن ادخل. كعادتها تدخل مبتسمة وكأنها استمعت لتوها إلى خبر مفرح، إن هذه الفتاة البلهاء طيبة للغاية وتسلّيها. تدخل منار من باب الحجرة إلى الشرفة في خطوات واسعة تتقافز فرحا قبل أن تأتيها جملة ليلى:

"تعالي يا منار، ادخلي."

"صباح الفل يا ست الكل! ايه القمر ده ياخواتي، والنبي تستاهلي ١٠٠ بوسة."

"يا بت فكك بقى من البكش ده، قولي لي عملتي إيه في اللي اتكلمنا عليه إمبارح؟"

تجمدت منار في وقفتها، ثم تقدمت من حاجز الشرفة ببطء.. تبدو خائفة من أن تغضب ليلى، لكن هناك سببًا آخر يخيفها بذات القدر.

"على فكرة انتي شكلك عايزة تخربي بيتي يا هانم، أنا هاسمع كلامك ولو إن ممكن يتقطع عيشي فيها.. بس عشان تعرفي أنا بحبك قد إيه!"

نهضت ليلى وانقضت عليها تحتضنها في غل، وهي تهتف بمرح طفولي دون أن تحفل بالكتاب الذي وقع على الأرض حين قامت:

"حبيبتي والنعمة الشريفة، طب أروح أغير هدومي بقى."

"مش قبل ما نفطر الأول!"

"ما أنا هاعزمك على أي حاجة لما نخرج بقى، بطلي رخامة."

"ربنا يستر، اتفضلي يا مغلباني!"

*****

كانت المرة الأولى التي تغادر فيها ليلى المستشفى وتعبر الأسوار إلى الحياة بالخارج، وقد استلزمت هذه المغامرة من منار بعض الخطط الإستراتيجية الممعنة في المبالغة والمثيرة للضحك من فرط سذاجتها. وبرغم بهجة اللحظة بالنسبة لليلى وشعورها بالإثارة، إلا إنها ظلت تفكر في اللحظة الأولى التي استيقظت فيها ورأت العالم لأول مرة.

*****

منتصف ليلة الحادي والثلاثين من ديسمبر، ٢٠٠٣.. سيدي جابر، الإسكندرية.

الكل سعيد مبتسم في غير تكلف، والطقس يميل إلى البرودة. أصوات الهمس والضحكات المسرورة يكاد يعبر مياه المتوسط حتى الحدود الإيطالية.

عالم من الأضواء، تكفّل بتحويل شوارِع المدينة إلى قطعة من حافة قرص الشمس. من يمكنه أن يحزن أو يكتئب في ليلة كهذه، وفي بلد مثل هذا، وفي طقس على هذا القدر من السحر؟ في مثل هذه الأجواء، يصير للحب طعمٌ أجمل كثيرًا، مثل كأس من الحليب المخفوق، أضيفت إليها بعض الفانيليا.

obeikandi.com

مئات الشموع قد أوقدت، شبكات الهواتف معطلة بسبب مقدار الضغط المهول، ملايين الاتصالات، والرسائل القصيرة، والمتعددة الوسائط، تحمل التهاني والنكات وكلمات الحب. آلاف البشر يحتشدون على المقاهي وفي الطرقات المؤدية للمحطة، وبطول خط الكورنيش، احتفالًا بميلاد سنة جديدة.

لكن واحدة بالجوار، بدت وكأنها لم تكن تتابع هذا الكرنفال الجنوني البهيج.

محطة سيدي جابر..

مستشفي د.سليم داغر..

الجناح الملكي.

فتحت عينيها في هذه اللحظة فجأة وكأنها تستيقظ من نومة طالت. أجهزة غريبة تحيط بها من كل جانب، عشرات الأسلاك والأقطاب والأنابيب، تخرج وتدخل من وإلى كل أنحاء جسدها. لم تفهم أي شيء. كان الموقف مدهشًا جديدًا عليها، مربكًا إلى درجة الرعب.. جالسة في فراشها تتأمل الجدران من حولها، بنظرات غير فاهمة، حاولت أن تتذكر ما حدث، أين هي، من هي؟! كانت تشعر بأنها قد خلقت لتوّها!

أطلقت لبصرها العنان داخل المكان، لم تصدق هذه الصورة المبالغ فيها من الأناقة والترف والبذخ، الثريا المدلاة من السقف المرتفع، السجاد الفاخر الذي يكسو معظم أرضية المكان الخشبية اللامعة.. الأثاث،

المقاعد، حتى الفراش الذي ترقد عليه. هل أدخلوها مخدع الملكة إليزابيث بطريق الخطأ؟

حاولت أن تنهض جالسة، فأصابها دوار وصداع مباغتان، جعلاها ترتد إلى مرقدها مستسلمة. كان على جانبي الفراش كومودينو مزدوج جميل الشكل، منمنم الزخارف، وجدَت في دُرجه مرآة صغيرة ذات إطار خشبي مذّهب، ولها مقبض أنيق، تناولتها ووضعتها أمام وجهها ببطء وتردد.. ولم تصدق ما رأت عيناها. أذهلتها حقيقة أنها على هذا القدر من الحُسن والملائكية، كان لملامح وجهها جمالاً وبهاء أكبر مما توقعَت. وطفقت تبتسم وتقطب للمرآة، حتى تتأكد من أن هذه الصورة التي تطالعها، هي صورتها فعلاً! حركت أصابعها أمام السطح الفضّي، لمست أنفها بطرف سبابتها كأنها طفل وليد يرى المرآة للمرة الأولى في حياته، ويبدأ في اكتشاف ذاته كخطوة أولى في رحلة اكتشاف الكون. ولدقائق، ربما ساعات، ظلت تتأمل شعرها القصير فاحم السواد، وشفتيها الرقيقتين، أنفها الدقيق المنمنم، بشرتها الوردية مثل باطن كف لرضيع.. وعينيها السوداوتين المتسعتين دهشة. وأخيرًا تركت المرآة، وقد بدأت تستشعر في نفسها سعادة جارفة ليس لها حد، وبدا أنها نسيت، ضمن ما نسيت، حقيقة موقفها هذا.

فتحت بقية الأدراج لكنها كانت خاوية، ألقت نظرة من حيث ترقد إلى النافذة العريضة، بعرض الجدار، المطلّة على الطريق.. ظلام دامس تتخلله بعض النقاط الصفراء والبيضاء الصغيرة المتوالية إلى ما لا نهاية.. للمرة

الأولى تلاحظ أن هناك بعض الصور المؤطّرة، المعلقة على الجدار بشكل استعراضي أنيق. كانت الصورة الأولى كبيرة، تمثل رجلاً على مشارف عقده الرابع، بدا وسيمًا متأنقًا يبتسم في هدوء. من هذا الرجل، وما الذي أتى بصورته إلى غرفتها؟ لكنها لم تتساءل كثيرًا، إذ راحت تنشغل بتأمل الصورة التالية. كانت أصغر حجمًا من سابقتها، صورة زفاف كانت، بدا فيها ذات الرجل واقفًا يرتدي حُلّة سهرة سوداء اللون.. وكانت هي بالذات بجانبه في ثوبها الأبيض طويل الذيل، وكان يضمها إليه في رقة، وكلاهما مبتسم. هذا زوجها إذن! استراحت لمنظر هذا الرجل، وتمنت لو كان داخله جميلاً، موحيًا بالطمأنينة والثقة كخارجه، وتمنت أكثر لو كان قريبًا منها الآن، في هذا المكان الذي لا تعرفه، حتى يشرح لها كل شيء.

حركت ذراعها بطريقة عفوية، ولكن يبدو أنها دونما عمد قد فصلَت أحد الأقطاب المتّصلة بجسدها، وأصابها الذعر عندما بدأ الجهاز المتصل بهذا القطب في إطلاق الصفير المتقطّع المرتفع الصوت. جلست منكمشة في خوف، تضم ركبتيها إلى صدرها،وترفع الملاءة إلى ما تحت ذقنها، وهي ترتجف ذعرًا. مما جعل المزيد من الأقطاب تُنزع عنها.. وتصاعد الصفير والأزيز، المتقطّع والمتصل، من أكثر من جهة.. وفي لحظات تحول الموقف إلى جنون تام.

لنصف دقيقة تقريبًا، استمر هذا الموقف، وهي تتلفّت حولها مرعوبة دون أن ينطق لسانها بكلمة، أو تطلق حتى صرخة استغاثة. ومن الخارج تصاعدت أصوات صياح، وخطوات مسارعة تقترب. وتعلقت عيناها بالباب

الكبير المغلق، الذي لم يلبث أن أنفتح فجأة، ودخل عبره ثلاثة شيوخ كلهم فوق الستين، يرتدون المعاطف البيضاء، ومن خلفهم دخلت ممرضتان صغيرتان. انطلق أحدهم يوقف الأصوات، وآخر راح يتأمل شاشات الأجهزة مندهشًا، وأخرى تنزع عنها كل تلك الأشياء المتصلة بها، والتف الجميع حولها في النهاية بعد أن توقف كل شيء.

"دي معجزة حقيقية"

"أخيرًا! احنا كنا قربنا نفقد الأمل"

"سبحان الله.. لكل أجل كتاب"

"حمدلله على سلامتك يا ستّ الكل!"

"كل المؤشرات ممتازة.. النبض والتنفس وضغط الدم"

لم تغير وضع جلستها، ولكنها أعملت بصرها فيما بينهم. من الواضح أن الرجال الثلاثة، ذوي الشعر الأبيض - أحدهم كان أصلع نسبيًّا - هم أطباء مكلفون برعايتها، ويبدو أيضًا أنها نائمة منذ فترة طويلة جدًا، حتى أنهم يأسوا من عودتها. كل هذا مفهوم، لكنها تساءلت في سرها لما جميعهم من الشيوخ، هل كفت كليات الطب عن تخريج دفعات جديدة؟! كان أحدهم محنيّ القامة، مرتعش الكفين، وكان الآخران يضعان عدسات زجاجية سميكة، وخطر لها أنهم هم الأولى منها بالرعاية. ووجدت الفتاتين تبتسمان لها في إشراق ومَوَدة..

"انتي حاسة بإيه دلوقت؟"

"انتي كويسة؟ سامعانا كويس؟"

انتظرَت لحظات قبل أن تهز رأسها إيجابًا. وجدت في كفها كوبًا من الماء، رفعته إلى شفتيها دون أن تشرب، ودون أن تتوقف نظراتها عن التجول بين أعينهم..

"مالك يا هانم، مابتتكلميش ليه؟"

تركت كوب الماء، وحاولت التحدث، فوجدت عُسرًا في الكلام؛ كأن هناك ما يسدّ حلقها. تنحنحت وقالت مختبرة نبرات صوتها للمرة الأولى.

"أنا فين؟"

"أنتي في الجناح الملكي، في مستشفى الدكتور سليم، جوزك. نقلوكي هنا بعد الحادثة. احنا آسفين للي حصل، بس الحمد لله على أي حال.. ماحدش كان متخيل إنك هاتقومي لنا بالسلامة تاني بعد كل دا"

كادت أن تتساءل عن طبيعة ذلك الحادث، وما حدث بالضبط. لكنها أعرضت، إذ كان هناك سؤال أكثر إلحاحًا من هذين..

"أنا آسفة، بس.. أنا مين؟!"

*****

"مدام ليلى داغر، حرم السيد الدكتور سليم عبد الوهاب داغر، رجل الأعمال، والمليارديرالمصري المعروف. رئيس مجلس إدارة سلسلة فنادق (ليلى) على مستوى العالم. وصاحب مؤسسة داغر للتجارة والمقاولات، ورئيس مجلس إدارة مستشفيات (داغر) في مصر وأغلب العواصم الأوروبية.."

توقفت الممرضة الجالسة بجوار ليلى عن الكلام، لالتقاط أنفاسها، قبل أن تستدرك..

"آه! كنت هانسى كمان..."

استوقفتها ليلى بإشارة من يدها، وهي ترمقها مذهولة..

"على مهلك يا منار، ما تختصري وتقولي إني متجوزة عم دهب شخصيًا!"

رمقتها منار في دهشة..

"مش غريبة إنك فاكرة عم دهب، ومش فاكرة اسمك؟"

"اسمي ليلى داغر طبعًا!"

"برافووو..!!"

مالت عليها ليلى هامسة في رجاء..

"ماحدش من الدكاترة اتكلم قدامك إن الذاكرة ممكن ترجع لي قريب؟"

"هو ماحصلش إن حد جاب سيرة الموضوع ده قدامي والله، بس مين عارف.. جايز ربنا يفرجها قريب.. عمومًا هي كانت حادثة بشعة، وماحدش فينا اتوقع إنها تمر من غير أي خساير"

ثم أتبعت بلهجة خاصة تحمل بعض الخطورة:

"بيني وبينك يا هانم! لو كنت مكانك، كنت حمدت ربنا ألف مرة على نعمة النسيان، مش هاتفرحي لو افتكرتي.. صدقيني، دا من رحمة ربنا بيكي!"

opeikanal.com

لم يكن من المسموح لها أن تخرج قبل تمام الاطمئنان على صحتها، وبالتأكيد لم يكن ليتم هذا بغير وجود طاقم الحراسة الشخصية المكلف بمرافقتها، باعتبارها شخصية عامة، وزوجة لرجل على قدر كبير من الخطورة، لذلك نراهما مدثرتين بالمعاطف، تحسبًا لسقوط الأمطار، ومختبئتان خلف نظارتان شمسيتان عريضتان، تتمشيان في أروقة أحد المراكز التجارية الكبيرة بالمنطقة، وكل منهما تحمل بعض الحقائب الورقية الصغيرة.

كانت ليلى تشعر بالسعادة لهذه المغامرة المثيرة، لكن منار كانت في أشد حالات القلق من أن يكشف أحد شخصية ليلى، فتكون كارثة وقعت على رأسها لمخالفتها التعليمات. لذا كان الندم يأكلها، وراحت تلعن غباءها الذي ساقها إلى الموافقة على هذا الاقتراح الخطر.

"اتحركي شوية يا جبانة! خلينا نستمتع بنور الشمس"

وتوقفت أمام ثلاجة عرض صغيرة، يقف خلفها طفل باسم، يرتدى زيًا مطبوعًا عليه شعار المركز..

" شوكولاته ولّا فانيليا؟"

"آيس كريم في الجو ده؟!"

"وإيه المشكلة؟ هو حد بيراقبنا؟!"

تلفتت منار حولها بفزع مفاجئ..

"مش بعيد والله.. ربنا يستر!"

أطلقت ليلى ضحكة مرحة، وقالت باستمتاع:

"ماتخافيش يا حلوة، انتي مع ليلى داغر شخصيًا.. ومفيش مخلوق يقدر يقرب لك وانتي معايا!" أسرعت منار بوضع يدها فوق شفتي ليلى..

"ششش!! كأنك بتقولي للي ماسمعش يسمع! يالا بينا كفاية كدا"

تملصت منها، وركضت في الممر الطويل صائحة:

"لأ مش دلوقت، لسه عايزة اشتري حاجات!"

ثم التفتت نحوها وقالت بلهجة مغرية:

"إيه رأيك نقطع تذكرتين في حفلة تلاتة؟!"

*****

وضعت ليلى شوكتها في الطبق بحركة عنيفة، وقالت غاضبة:

"مش واكلة! سديتي نفسي"

"انتي بتتصرفي زي العيال الصغيرين واحنا في مكان عام على فكرة.."

"ولازمته إيه المكان العام؟ ماكنا اتغدينا في المستشفى بدل ما احنا بنتحرك زي الهربانين كدا؟!" انتظرت منار لحظات، حتى انصرفت النادلة التي كانت ترتب المائدة:

"أولاً، عشان جنابك اللي كنتي عايزانا نخرج. ثانيًا، شكلك ناسية المصيبة اللي ممكن ألبسها عشان سمعت كلامك.. والمصايب الكتيرة اللي ممكن تحصل لك لو حد عرف انتي مين، يمكن يشوفك حد من أعداء جوزك ماتعرفيهوش، ويعتمد على إنك فاقدة الذاكرة.. يا ترى هاتعملي إيه ساعتها، هه؟!"

بدت في عيني ليلى نظرة تنم عن الذعر، فأتبعت منار:

obeikandl.com

"ثالثًا.."

ونهضت من مجلسها مكملة:

".. ممكن نقوم نرجع حالا لو عايزة!"

تشبثت ليلى بكفيها صائحة:

"لا والنبي خلاص هاكل! خلينا شوية بس"

جلست منار ورمقتها بنظرة متعجبة..

"انتي مابقيتيش تحبي المستشفى؟"

"لا، بس حاسة إني محبوسة.. الزهق طلّع روحي"

تبسّمت منار، وليلى تواصل الكلام:

"حتى الكتب والروايات، خلّصتهم كلهم في كام يوم.. إيه المانع نخرج كل يوم ساعة واحدة نشوف فيها الشوارع والناس على الأقل؟!"

وتأملت الفراغ للحظات، حتى جذب انتباهها مشهد لطيف للغاية.. رجل بدين أشيب الشعر، يبدو في أواخر الخمسينات، لكنه يحمل وجه طفل. انحنى على حوض لزهور (لانتانا كامارا) البرتقالية ذات القلب الوردي، والتقط واحدة، ثم وضعها بين صفحات كتاب يحمله، قبل أن يواصل طريقه مبتسمًا راضيًا. ابتسمت للموقف، قبل أن تسأل منار في لهجة فضولية:

"بس انتي ماقلتيليش صحيح، انتي مرتبطة؟"

هزت رأسها نفيًا..

"لا!"

obeikandl.com

"ماتقوليش لأ، اسمها (لسّه) عشان ربنا يفتح عليكي، ماتبقيش فقرية!"

"وهاتفرق في إيه يعني؟

"اتفاءلي يا حبيبتي، بدل ما تتمي ستين سنة وانتي لوحدك!"

"ستين ولا تلاتين كله زي بعضه، وبعدين أنا مش ناوية أرتبط أصلا.. (لأ) هي الصح على فكرة"

"معاكي حق، إيه اللي يخلي بنت حلوة زيك تتجوز واحد فوق الخمسين؟"

تأملتها منار مندهشة..

"أنهي راجل دا؟!"

هزت كتفيها في حيرة..

"أي راجل.. أنا من ساعة ماصحيت من الغيبوبة ماشفتش ولا شاب بين العشرين والخمسين!"

ثم أتمت بسخرية..

"هما الشباب راحوا يحاربوا الرومان ولّا إيه؟!"

*****

"هنا من فضلك.. شكرًا"

أوقف سائق الأجرة سيارته بمحاذاة الرصيف المقابل للمستشفي دون كلمة، انتظارًا لإكرامية سخية من الهوانم ذوات المعاطف الجميلة والحقائب الفاخرة. نزلت كل من ليلى و منار تحملان الكثير من الحقائب الصغيرة، وتكفلت الأخيرة بمهمة محاسبة السائق وصرفه مرضيًا..

obeikandl.com

"كويس إننا سبنا عربيتنا هناك وجينا في تاكسي.. فكرة جامدة جدا!"

رمقتها منار للحظات، قبل أن تقول بلهجة باردة:

"طب كويس إنك استمتعي بالتاكسي! بس أنا عملت كدا عشان ماحدش ياخد باله من شعار المستشفى على العربية واحنا راجعين.."

هزت ليلى رأسها تعجبًا من حرصها الزائد عن الحد، لكنها لم تشأ أن تعلق.

"قلبي حاسس إنها مش هاتعدي على خير، ربنا يستر!"

هنا انفعلت ليلى حقًا، فلم تستطع تتمالك نفسها..

"مالك يا بنتي؟! ما احنا خلاص وصلنا أهو.. حصل إيه يعني؟"

رمقتها منار بنظرة خائفة، فتابعت ببعض الهدوء..

"أنت بتتكلمي كأننا رحنا سرقنا بنك ورجعنا! خلاص الموضوع انتهى وماحدش عرفني، وماوقعتش منك في السكة.. إيه المشكلة بقى؟ ماتكبريش المواضيع للدرجة دي"

صمتت منار لدقيقة غير قادرة على النطق، لكنها في النهاية قالت كلمة واحدة:

"مش هاتفهمي!"

"أحسن! مش عايزة أفهم حاجة، يالا بينا"

*****

جلست في فراشها تستعيد بعض ما أخبروها به عنها، وتدثرت بغطاء تتناثر فوقه عشرات من الكتب التي اشترتها، واحتارت بأيها تبدأ. هي الفتاة

المصرية الأم، الإيطالية الأب، كانت أسرة سعيدة ميسورة الحال، ولم تعتد ليلى سماع كلمة "لا" إزاء أيٍ من مطالبها التي لم تكن تنتهي. قضت أول خمس عشرة سنة من عمرها، في التنقل بين (روما) و(الإسكندرية) و(نابولي).. مات والدها، وترك لها ثروة لا بأس بها، من ثم انتقلت مع أمها إلى الإسكندرية، مسقط رأس الأم، بغرض الإقامة المستديمة. كانت قطة بابا وماما الصغيرة. فتاة مدللة إلى أقصى حد. وظلت تعشق ذاتها لمدة خمسة أعوام إضافية، وتمارس النرجسية والدلَع على خلق الله. ترفض هذا وتتمنع على ذاك، برغم أن كل من تقدموا إليها كانوا من أبناء عائلات عريقة بالإسكندرية. حتى ظهر د.سليم في حياتها، ومنحها الفرصة الذهبية، لتجرب أن تعشق شخصًا آخر بخلافها.

درست ليلى في معهد الموسيقى العربية. كانت تعشق البيانو، وتمنت أن تتمكن من العزف ببراعة. كانت ترى أن عازفي البيانو ليسوا بشرًا، ليسوا أقل من ملائكة تمشي على الأرض. أخبرتها صديقتها هالة أن هناك دكتور يعزف البيانو ببراعة كالأبالسة، وهو مستعد لإهداء علمه لمن يطلب وبلا مقابل.

"ده عندنا في المعهد؟"

"معهد إيه يا بنتي؟ ده طبيب بشري. بس بيعشق البيانو زيك ويمكن أكتر، الفرق ما بينه وبينك إنه بيعرف يعزف.. بصراحة راجل ساحر!"

"تصحيح: مفيش حاجة اسمها (بيعرف يعزف)، اسمها موهوب! العزف موهبة مش معرفة!"

هزت صديقتها رأسها نفيًا..

"وحياة والدك بطلي فذلكة وفَتي.. هو شايف إن كل واحد فينا جواه الموهبة، المهم هو يقدر يعمل بيها إيه؟ والموهبة مالهاش أنواع، بس لها درجات. يعني عندك واحد موهوب جدا، وواحد موهوب بس.. طبعًا فيه ناس ماعندهمش أي موهبة خالص، دول بقى اللي تقدري تقولي عليهم (أغبيا) وانتي ضميرك مرتاح!"

"يعني إيه الموهبة مالهاش أنواع؟! أكيد في ناس موهوبة في النحت وناس موهوبة في الموسيقى، أو الرسم أو.. كدا يعني!

"لأ، غلط الكلام ده! الموهبة يا بنتي طاقة صافية ونقية.. **pure**! ولكل إنسان نصيب متفاوت الكم في الطاقة دي، يعني لو اعتبرناها زي الكهربا مثلا.. لو وصّلتي الكهربا بمروحة هاتنتج لك حركة، مع الدفّاية، حرارة.. ومع التلاجة، برودة، وهكذا.. وخدي بالك إن مصدر الكهربا واحد.. يعني انتي عندك الموهبة، المهم تقدري تعملي بيها إيه.. فهمتي حاجة؟!"

رفعت ليلى حاجبًا، ثم مالت بعنقها، فتابعت صديقتها بحماس وكأنها لا تنتظر ردًا:

"أهي الموهبة كداهو بالظبط! لو انتي عندك الطاقة دي وبتحبي الرسم، هاتبقي رسامة شاطرة، لو كان اهتمامك النحت هاتبقي مثّالة (موهوبة).. لو عمرك مادخلتي مدارس وكنتي شغالة في تصليح الكوالين والأقفال وربنا فتح

عليكي بالموهبة دي، ممكن تخترعي لنا نوع جديد من الأقفال بيتفتح أول ما يشوف صاحبه جاي من على أول الشارع! فهمتي؟!"

"صلاة النبي عليكي وِع اللي جابوكي! وانتي اسم الله جبتي الفلسفة دي كلها منين؟ ده انتي بتتلخبطي في اسمك يا منيّلة!"

قالت صديقتها في لهجة حالمة مثيرة للضحك:

"هو علَّمني بقى!"

"هو مين بسلامته؟!"

"الدكتور طبعًا!"

"هو قال كل دا؟!"

"وأكتر! لازم تقابليه بنفسك، ده كنز!"

علقت ليلى ساخرة:

"ويا ترى اسمه إيه الكنز ده؟!"

"لا! دا سرّ"

"بت! هاكسر دماغك، انطقي"

"اسمه دكتور هشام محمود.. بس هو مش شغال علني في موضوع المزيكا دا"

"ليه ياختي؟ خايف من الضرايب، ولا هربان من بتوع تنفيذ الأحكام؟!"

"لا دا ولادا، ومش هقول لك.. لما تشوفيه هاتعرفي بنفسك!"

"لما أشوف بنفسي، فهمت! هو وقعت على دماغه طاسة زيت مغلي وهو صغير؟"

"بطلي بواخة بقى، أنا رايحة أشوف المحاضرة اللي ورايا، وهانتقابل هنا لما أخلص عشان نروح له سوا..o.k؟ "

*****

"من هنا يا ليلى.. أيوة البوابة دي"

كان المكان عبارة عن حديقة كبيرة منسّقة بعناية فائقة، ولها بوابة عملاقة مفتوحة. كاد حارس الأمن على البوابة أن يعترض طريق سيارتها بينما تمر من خلالها، لولا أن رأى هالة تجلس إلى جوارها، فأشار إليهما أن تمرا، ثم رفع جهازًا لاسلكيًا إلى شفتيه. بعد البوابة الكبيرة، ورجل الأمن، كان هناك ممرّ طويل من الرخام الأبيض، يقود في نهايته إلى مبنى شديد الفخامة والرقي، شاهق الارتفاع. وعلى واجهته الأمامية انطبع في إصرار شعار دائري يشبه المتاهة، أكثر من مرة وبأحجام متفاوتة. كان المشهد ذا تأثير قوي حقًا.

"تمام، هنا!"

أوقفت ليلى سيارتها حيث طلبت هالة، ثم ترجّلتا معًا..

"إيه المكان دا؟ احنا هانقابل الدكتور بتاعك في قصر الرياسة؟!"

"قصر الرياسة يا جاهلة؟ دا المقر الإداري لمجموعة شركات (داغر) للمقاولات العامة.. عمرك ماسمعتي عنها؟"

" بتاع الحديد؟! سمعت ياختي!"

o b e i k a n d i . c o m

"حديد؟؟ لا، بتاع الأسمنت! حديد يا أم دماغ صفيح!!.. ياللا بينا بلاش فضايح!"

"ما علينا! والدكتور دا بيضرب لهم بيانو وهما شغالين ولا إيه ظروفه؟"

"لأ هو موظف هنا.. شغال في وردية المسا"

*****

"خلصي قهوتك بسرعة، الراجل خلّص اجتماعه، وممكن يكون هنا في أي لحظة"

وضعت ليلى قدحها جانبًا في توتر، وبعين حذرة أخذت تتأمل المكان. كانت حجرة متوسطة المساحة، بلا نوافذ على الإطلاق. ولها باب كبير يفضي إلى الحديقة، وهو الذي دخلتا منه، وباب آخر صغير لا تعلم إلام يفضي. وكانت هناك بعض المقاعد القليلة، ومنضدة بالحجرة.. بالإضافة إلى أشياء أخرى كثيرة لم تعرف ما هي، لأنها كانت مغطاة بقطع من الأقمشة البالية المتربة.

لم تكن الحجرة عارية من الأثاث، إلا أن ليلى اعتبرتها كذلك. والسبب طبعًا هو الفارق الشاسع بين هنا والخارج، من حيث النظافة والنظام.

قطع أفكارها صوت الخطوات الواثقة الثقيلة التي تقترب من الباب الصغير، صوت مقبض الباب إذ يدور، وصوت الصرير الصادر من مفصلاته.

"إزيكم يا بنات.. أنا عارف إن الزمن له قيمة طبعًا، بس بالنسبة لي أنا، القيمة دي مالهاش أي قيمة!"

نهضت الفتاتان تستقبلان الوافد إليهما من الخارج، إحداهما بحرارة، والأخرى بفضول واندهاش من هذه الافتتاحية الغريبة.

"عارفين ليه؟ عشان القيمة دي مهما كانت، هي في الآخر قيمة نسبية.. يعني كل واحد له وجهة نظره! عمركم شفتوا قانون بيحاكم الناس على وجهة نظرهم؟"

كان وسيمًا جذابًا كنجوم السينما، ذا ابتسامة ساحرة، وصوت قوي دافئ. تقدم يصافحهما في ترحاب ومودة..

".. ورغم كدا مابحبش اتأخر عن مواعيدي. أنا خلصت الاجتماع بدري عشان ما اتأخرش عليكم.. إزيك يا هالة؟"

قالت هالة بصوت متهدج، وهي لا تصدق أنه يخاطبها باسمها..

"أنا بخير يا دكتور، الحمد لله!"

قالت ليلى بلهجة مرحة:

"حضرتك طبعًا الدكتور هشام.."

تأمل وجهها في فضول مندهش، وأطال النظر حتى أزعجها الأمر، التفتت إلى صديقتها طالبة المساعدة، فوجدتها غارقة في عرق الإحراج.. همست:

"هو فيه إيه؟!"

"هشام مين بس الله يخرب بيتك!"

قالتها هالة في غلٍ هامس.. فصاحت ليلى في حنق:

"مش انتي اللي قلتي لي اسمه هشام يا بنت الـ...!"

سارعت هالة بوضع كفها فوق شفتي ليلى، قبل أن تُتم جملتها، ثم قالت مخاطبة الرجل في حرج شديد:

"أنا آسفة يا دكتور، سامحني.. أصل ليلى صاحبتي تعبانة وبتتعالج عند اخصائي نفسية وعصبية!"

حررت ليلى نفسها من قبضة هالة، وصاحت في ثورة:

"والله العظيم هي اللي قالت إن اسمك هشام.. وأنا كنت أعرفك عشان أتخيل اسمك يعني؟!"

قال الدكتور بلهجة مرحة وهو يحاول تهدئة الموقف:

"أنا دلوقت متأكد إنك ماتعرفينيش، وعموما اسم هشام مش وحش للدرجة دي!"

ثم قال ضاحكًا في حرج:

"في الحقيقة، أنا اللي طلبت من هالة تقول أي اسم وهمي.. لو انتشر خبر إني بدي دروس خصوصية في المزيكا، ماحدش هايسيبني في حالي"

تسمّرت ليلى من الصدمة، لكنه تابع:

"بيسموها ضريبة الشهرة، بس أنا مابدفعش ضرايب. ممكن تبلغي مباحث الأموال العامة لو حبّيتي! ساعات الواحد بيبقى له هوايات غريبة، ولو كنت حد عادي ماكنش حد علّق، مش كدا؟ تخيلي لو أوناسيس كان بيحب يصلح بوابير الجاز مثلا!! تفتكري كان هايعرف يمارس هوايته بحرية؟ لما أوناسيس يحب يمارس هواية بريئة ومايقدرش.. أمال مين فينا يقدر؟!"

"وحضرتك أوناسيس بقى؟!"

قال ضاحكًا:

"لأ مش للدرجة دي، أنا اسمي سليم داغر"

"أعرفك! سامحني، بس والله أنا لا بتفرج على تليفزيون ولا بقرا جرايد، بس أنا عارفة اسمك كويس.. د.سليم داغر (بتاع الحديد).. انت بقي الدكتور بتاع الحديد؟!"

"تحت أمرك يا فندم!"

ظل كل منهما يتأمل عيني الآخر مبتسمًا، عاجزًا عن خلق الكلمة التالية، فتنحنحت هالة في ضجر لتنهي الموقف. قال سليم:

"طب إيه، جاهزين للدرس؟"

"أنا مستعدة، إنتي مستعدة يا هالة؟"

قالت هالة في غيظ:

"خلّيكي في حالك!"

"شاهد يا دكتور؟!"

قال سليم في بساطة:

"خليها سليم بس، مفيش داعي للألقاب"

ثم أتبع بعدما رأى الخجل مرتسمًا على وجهها:

"قصدي إني مش عجوز قوي يعني.. دول هما كام سنة بيني وبينك!"

"سليم باشا! إحنا مش طالعين أوضة الموسيقى ولا إيه النظام؟"

"إنتي بقيتي مملة قوي يا هالة! عمومًا شكلنا طلعنا فعلا"

قالت ليلى في غباء:

obeikandi.com

"طلعنا فين؟! هي دي مش أوضة الموسيقى؟"

قبل أن تتم عبارتها، سمعت صوتًا معدنيًا يقول:

"٢٦"

فتوجه سليم نحو الباب الكبير وفتحه على مصراعيه:

"اتفضلوا"

ولم تكد ليلى أن تقترب من الباب، حتى أطلقت صرخة قصيرة، ثم قالت مرتجفة:

"الجنينة راحت فين؟!"

تناول كفها وعبر بها الباب، ومن خلفهما دخلت هالة..

"سبناها تحت! لو خرجنا من القايمة أنا والمهندس اللي صمم المبنى دا، مش هايكمّل عدد اللي يعرفوا مكان الأوضة دي ستة سبعة بالكتير.. هنا بيتي ومكان شغلي وكل حاجة بالنسبة لي.. بس إيه رأيك؟ ماتنكريش إنها كانت جديدة عليكي التجربة.. أول مرة تشربي القهوة في أسانسير!"

obeikandl.com

"أسانسير؟!"

صاحت بها ليلى غير مصدقة، قبل أن تطلق ضحكتها المرحة الشهيرة، التي أردت بالكثيرين. فابتسمت منار سعيدة لضحكتها، ثم قالت:

"دي كانت أول مرة تقابلوا بعض، وبالتأكيد كان يوم ناجح، لأنكم أعلنتوا خطوبتكم بعدها بأسبوع.. الكلام دا كان من حوالي خمس سنين تقريبا"

تأملت ليلى الفراغ للحظات، قبل أن تسأل:

"وانتي ماكنتيش معانا يا منار طبعًا.."

"لأ طبعا، كنت معاكم فين؟! انتي اللي حكيتي كل التفاصيل بقى بعد كدا"

"أنا حكيت لك التفاصيل دي كلها بالدقة دي؟!"

"لأ مش بالظبط، بس أنا قريت الكتاب زي ما كل الناس قروه!"

ثم ضربت جبينها بكفها وصاحت:

"يخرب بيت الغباوة! هو دا الحل من الأول، إزاي ماجاش في بالي!!"

"أنا مش فاهمة حاجة!"

قالت منار منفعلة:

"لحظة واحدة، في حاجة مهمة معرفش إزاي غابت عن بالي.. انتي فاكرة كتاب (سنوات ساحرة)؟"

هزت رأسها نفيًا..

obeikandl.com

"دا كتابك، اللي حكيتي فيه قصتك بالكامل، ومن حسن الحظ إنك أخدتي القرار ده بعد الجواز.. حظك حلو يا عسولة!"

"أنا فعلا حاسة إن حظي حلو قوي! لو ماكنتش مرات الراجل دا أكيد ماكنتش كتبت مذكراتي أبدًا.. هو دا الفرق ما بين الأهمية والشعور بالأهمية"

"مين اللي قال كدا؟ إنتي أهميتك مش مصدرها الوحيد إن جوزك يبقى سليم داغر.. إنتي كمان نجمة مجتمعات وليكي أنشطة عامة مالهاش حصر، ومشروعات خيرية في أكتر من دولة في أفريقيا وآسيا.. كل واحد في العالم عنده تليفزيون أو بيستخدم الإنترنت، حافظ وشك واسمك وتاريخك كله!"

"طب ما دا كله برضه عشان مرات سليم داغر يا هبلة!"

قالتها ليلى في سرها، بينما أكملت منار متحمسة..

"إنتي تعرفي كتابك (سنوات ساحرة) دا باع كام طبعة؟ تعرفي إنه تصدّر قائمة مبيعات الكتب في آخر سنتين في مصر والوطن العربي كله، وإنه اترجم لأربع لغات أجنبية؟"

وأتبعت ضاحكة:

"إنتي مش متخيّلة عدد الدكاترة والمهندسين والمحاسبين والعمال والسواقين وغيره وغيره، شوفي كام مستشفى أو مكتب أو فندق على مستوى العالم بيملكهم الدكتور..."

ثم مالت عليها هامسة في مرح:

" لو كل واحد فيهم اشترى نسخة، دا بس ممكن يضمن لك أعلى مبيعات كمان خمس سنين قدام!"

*****

سكنت ليلى بعض الشيء، والتجأت إلى الصمت، تفكر في كلمات منار، ممرضتها التي صارت صديقتها الوحيدة. وتقلبت في فراشها بين الكتب وهي ترمق السقف البعيد المزخرف. حانت منها التفاتة جهة الشرفة المفتوحة، لترى الكتاب وقد استقر على الأرض كما تركته قبل أن تخرج، فلم تبال به وكأنها تنظر إلى حيوان صغير دهمته سيارة، وألقته بجوار رصيف. كانت منار قد عرضت عليها أن تساعدها في الانتقال للإقامة ببيتها، مادامت تشعر الآن أنها صارت أفضل، بدلاً من إقامتها بالمستشفى.. ولو تطلب الأمر، يمكن لطاقم الأطباء بأكمله أن يذهب إليها حيث هي. لكنها رفضَت. قالت إن جناحها بالمستشفى سيكون أفضل من بيتها الذي لم تره. لقد اعتادت النوم على هذا الفراش، وأحبت منظر الغروب، حين يقبل عليها من الشرفة العريضة التي تطل على البحر. لقد ألفَت المناظر والوجوه، ولا تحب أن تذهب إلى بيت لا تعرفه، به خدم لا تعرفهم، يقيمون معها. كما إنها كانت تخاف كثيرًا أن يعرف الناس أنها قد استيقظَت. فتبدأ في استقبال الهدايا وبطاقات التهنئة.. ثم الوفود الدولية التي أتت خصيصًا للاطمئنان على صحة معاليها. يلي هذا الأصدقاء والأقارب والمعارف، والموظفون والجيران وأصدقاء الطفولة، وكل من يمرّ أمام بيتها و......

"لأ مش هايحصل! أنا ماعرفش حد منهم.. مش هاعرف أنام دقيقة واحدة!"

"اطمني يا روحي، مش هاخليهم يخطفوكي أو يتسحّبوا لك في السرير، ولا يستنوكي على ناصية الشارع بالمطاوي.. هاتفضلي هنا معايا لغاية ما يرجع الدكتور يا صغنننة!!"

ترددَت ليلى قليلاً، قبل أن تسأل بصوت خافت:

"كنتي قلتي لي إن سليم في لندن وزمانه جاي.. هو هايتأخر تاني؟!"

سألت منار في اهتمام:

"وحشك؟"

"هو عيب؟!"

"لأ طبعًا مش قصدي، أنا بقول يعني، افتكرتيه؟"

تسمرَت ليلى لثوان، قبل أن تهز رأسها نفيًا، وهي ترمق البساط في حزن..

"لأ، بس أنا كوّنت عنه صورة كدا عايزة اتأكد منها.. وبعدين أنا مابقاليش غيره هو وماما"

ثم قالت وقد بدا أنها تذكرت شيئًا هامًا:

"هي ماما فين؟! وليه ماجتش تزورني مرة واحدة.. هي زعلانة مني في حاجة؟"

سكتت منار لحظة، قبل أن تجيب بقوة كأنها تطلق رصاصة:

"ماتت من فترة.. هو أنا ماقلتلكيش؟!"

انتابتها قشعريرة، قبل أن تقول:

"ماتت؟! لأ، ماحدش قال لي.. ده حصل من قد إيه؟"

ookaneiy.com

أصابها بعض الارتباك، قبل أن تقول:

"يعني! حوالي تمان شهور أو أكتر شوية"

هزت رأسها في فهم، وقد أصابها بعض الهم..

"يعني من وأنا في الغيبوبة؟ لأ، مش بالظبط..."

ثم بدا وكأنها بدأت تفهم أكثر:

"ثمانية.. تقصدي إن الحادثة..؟!"

*****

"بيني وبينك يا هانم! لو كنت مكانك، كنت حمدت ربنا ألف مرة على نعمة النسيان، مش هاتفرحي لو افتكرتي.. صدقيني، دا من رحمة ربنا بيكي!"

*****

"أجمل حاجة في الدنيا لما الواحد يحس إنه حر.. عارفة أنا حاسة بإيه دلوقت؟"

"إحساس جميل ولا وحش؟"

"جميل جدا!"

"تبقي حاسة إنك حرة!!"

قالتها الأم في كسل وهي تسترخي في مقعدها مسبلة جفنيها، فقطبت ليلى بغضب مصطنع، وقالت كأنها تكلم نفسها:

obeikandl.com

"اهو انتي كدا دايما يا ماما! بقى عندي خمسة وعشرين سنة، وبحضر دكتوراة في التاريخ الفرعوني، وعملت ثروة، واتجوزت أحسن راجل في الدنيا، وخلّفت ولدين توأم زي الورد.. وقربت أضيّع كل دا في حادثة.. وانتي لسه بتتعاملي معايا على إني طفلة"

"إنتي بالشكل دا مش هاتضيعي حياتك لوحدك.. خففي السرعة وحياة والدك، أنا لسه العمر قدامي وعايزة أفرح بشبابي!"

*****

كانت تقود بنفسها على طريق (الغردقة).. نصحها سليم أن تأخذ اللاندروفر، وأن تصحب معها السائق وطاقم الحراسة كاملاً، لأنه لن يستطيع مرافقتها..

"دي أجازة مش رحلة شغل.. please خليني أروح بالعربية الجديدة، أنا ماسقتهاش غير مرة واحدة!"

"دي عربية خفيفة يا ليلى، وانتي سواقتك مجنونة قوي"

"عربية خفيفة يعني عربية حلوة! وبعدين الرجالة دول بيكتفوني.. وأنا مش هالبس المايوه وهما موجودين!"

"طب ما انتي مش هاتلبسيه وأنا مش موجود!"

"ماما معايا والولاد، يالا بقى ماتبقاش رخم.. دي أول اجازة آخدها من سنتين!"

"انتي بقيتي زنانة قوي، ودماغك الناشفة دي هكسرها لك في يوم.. إيه رأيك أكسرها لك دلوقت، ولا لما ترجعي من الرحلة..؟!"

تهللت في مرح، وقفزت لتلثم وجنته..

"لأ لما أرجع أحسن.. لما أرجع ابقى هد المعبد على دماغي لو عايز.. أي حاجة ما عدا الطلاق طبعًا!"

*****

في سيارتها الرياضية الصغيرة، جلست خلف عجلة القيادة في استمتاع، وبجوارها كانت تجلس أمها، تراقب الطريق تارة، وتناكفها تارة. وفي المقعد الخلفي تجاور طفلاها الصغيران، يغفو أحدهما، ويشاهد الآخر فيلمًا كرتونيًا على شاشة صغيرة..

"ماما!"

"أيوة يا زيكو؟!"

" فيه هنا عصفورة حلوة قوي، تعالي شوفيها.."

"فين دي؟.. في الفيلم؟!"

"آه.."

"لما نوصل يا حبيبي، عشان ماما سايقة دلوقت.."

"دي شكلك بالظبط!.. بس إنت مش عندك جناحات..!!"

"إلحقي يا ماما!.. ابني إللي عنده تلات سنين بيعاكسني!"

"وطيّ صوتك يا زيكو، عشان كيمو نايم!"

"حاضر يا (تيته).."

"يا عسل! ابني مؤدب"

"يا بختِك.. أنا بنتي مش متربّية!"

"ماما!!"

*****

obeikandi.com

راحت السيارة تنهب الأرض في وحشية بسرعة ١٨٠ كم في الساعة، وكانت النافذة الأمامية بجوار ليلى مفتوحة، لذا كان من الغريب وسط ضوضاء المحرك، وصفير الهواء، وصياح الجدّة، وصوت الفيلم، أن يظل كيمو نائمًا! والأغرب على الرغم من كل ما سبق أن يبلغ ذلك الصوت مسامع الجميع.. صوت اصطدام معدني شديد العنف. بسرعة خارقة، التفتت ليلى إلى مرآة السيارة، لترى ذلك المشهد المروع: شاحنة هائلة الحجم، كانت تنطلق بسرعة مقاربة لسرعتها، ويبدو أن سائقها قد فقد التحكم فجأة في عجلة القيادة. من حسن الحظ أنه لم تكن هناك سيارات بينه والرصيف، لأن سيارته قد جنحت فجأة إلى جهة اليمين، فارتفعت مقدمتها إلى ما فوق الإفريز، ثم ارتطمت بأحد أعمدة الإنارة العملاقة، لتقتلعه من مكانه وتطيح به إلى عنان السماء.. قبل أن تواصل اندفاعها نحو سيارة ليلى!

كل هذا تم في ثوان قليلة، فسرت موجة من الهلع بداخل السيارة.. الصراخ والبكاء والتشبث بمساند المقاعد.. لدرجة أن كيمو قد أفاق من سباته يسأل في صوت ناعس عما يجري!

الوحيد الذي ظل على ثباته، ورباطة جأشه كان ليلى. على الرغم من الذعر الذي اجتاح كل خلية في جسدها، إلا أنها لم تسمح للهلع بأن يسيطر عليها..

"مفيش حاجة يا حبايبي، ماما هاتعرف تتصرّف. الأحزمة مربوطة؟"

"مربوطة.. "

"أنا مش عارف أربط الحزام"

"استنى أنا بعرف!"

"لأ أوعى، أنا هعرف برضه!"

ألقت نظرة أخرى على مرآة السيارة.. وهي تقبض على عجلة القيادة في قوة..

"جاهزين؟"

تركت العنان للسيارة ذات ناقل الحركة الأوتوماتيكي، كي تنطلق بهم بأقصى سرعة، وهي متشبثة بعجلة القيادة، كأنها تقبض على طوق نجاة بين أنواء المحيط، وكادت تكسر أسنانها من قوة الضغط عليها، تضامنًا من قدمها التي أوشكت على إحداث ثقب في قاع السيارة، جرّاء الضغط المتواصل على دواسة الوقود.. وأخيرًا رأت الشاحنة العملاقة تبتعد عنهم ببطء.. ببطء. خففت من ضغط قدمها على دواسة الوقود نسبيًا، واستعدت للدوران عائدة للخلف، هربًا من طريق الشاحنة المجنونة، وهي تكتم انفعالها العاصف..

"شكلها كدا.. "

قبل أن تتم عبارتها، رأت الشاحنة وقد استعادت سرعتها الرهيبة، تنطلق نحوها من جديد، وكأنما تعنيها هي بالذات! أصابها الارتباك، فجذبت ذراع الكابحة اليدوية بحركة مفاجئة، لتدور السيارة عكس اتجاه عقارب الساعة،

openkandil.com

وبزاوية ٣٦٠ درجة، قبل أن تتوقف بشكل شديد العنف عند بداية نقطة الرجوع..

وأغمضت عيناها، وهي تردد بصوت خافت بعض التمتمات، دون أن تحاول إلقاء نظرة على المقعد الخلفي، حيث عاد صوت الصراخ يتصاعد أكثر..

فووووووووو!!

فتحت عينيها ببطء، ولم تصدق حقيقة أن الشاحنة قد تجاوزتهم بالفعل، وأنها قد ذهبت بعيدًا.

"الحمد لله.. الحمد لله!"

واستدارت إلى الخلف فوجدت الطفلين منكمشين، كالأرانب المذعورة..

"شفتيهم يا تيتة شاطرين إزاي؟"

قبل أن تحر أمها جوابًا، سمعوا جميعًا ذلك الصوت. كان يشبه صفير الرياح، على الرغم من هدوء الجو من حولهم، ولم يدر أيّهم متى سقط ذلك الشيء فوق رءوسهم. وفي اللحظة التالية كانت السيارة والأرض التي تقف عليها، سواء بسواء.. وبجانبها تقافز عمود الإضاءة العملاق، العائد من سفره الطويل بعد أن أتم مهمته الأخيرة، وتدحرج على الأرض، حتى استقر في سكون بريء!

*****

obeikandl.com

"والدتك توفِّت فورًا، وفيه ولد من الاتنين فضل ينزف لغاية ما مات في الآخر.. أنت الوحيدة اللي الدكاترة لاقوكي سليمة، باستثناء شوية كدمات بسيطة. بس ماجاش في بالهم إن الإغماءة اللي كنتي فيها هاتقلب بغيبوبة تستمر ٨ شهور، وتصحي منها فاقدة الذاكرة.. أنا آسفة"

سكتت ليلى ولم ترد، ودام صمتها طويلاً.. طويلاً. ولم تحاول منار مقاطعة صمتها بكلمة، أو حتى لمسة بسيطة.. فقط طفقت تراقبها في وضعها المتجمد كتماثيل الشمع.. في النهاية استدارت ليلى نحوها وقالت بلهجة محايدة:

"والولد التاني..؟!"

تمتمت منار في ارتباك:

"حصل له كسر مضاعف في رجله اليمين، وشرخ في قاع الجمجمة.. وتقريبا أصيب في طحاله.. بس الحمد لله لسه عايش"

"وهو فين دلوقت..؟!"

"دكتور سليم اضطر يسافر بيه لفرع المستشفى في لندن أول ما الحادثة حصلت، ومانعرفش إيه اللي حصل بعدها.. هو ادى أوامر ماحدش يحاول يتصل بيه تحت أي ظرف لغاية ما يرجع أو يتصل بنفسه، هو كان متوقِّع – بعد الشر – خبر وحش بالنسبة لك، وماكنش عايز يسمعه وهو لوحده هناك في الظروف دي.. كلنا ماكناش متصورين إنك هاتقومي بالسلامة تاني بعد الفترة دي كلها، عشان كدا لما حاولنا نكسّر تعليمات سيادته، ونبلغه بالمفاجأة ماقدرناش. كان عامل حسابه وقافل كل تليفوناته.. من ساعة

الحادثة المهببة دي وهو معطل كل أشغاله وارتباطاته، ومتفرغ تمامًا لابنه.. بس برغم الفترة دي أنا مستبشرة.. أكيد ربنا شفا الولد أو على الأقل فيه أمل"

سكتت ليلى لدقيقة، قبل أن تهمس، بصوت ناعس:

"منار، وحياتك اطفي النور.. هانام شوية، ماتصحينيش على الغدا!"

*****

مهما كان الطريق طويلاً، كانت ستصل..

فقط لو يكف ذلك الذئب الملعون عن إخافتها..

فقط لو يكف القمر عن احتجابه السخيف..

فقط لو تكف تلك الرياح الباردة عن مداعبة أطراف ثوبها في خشونة..

فقط لو طال عمرها قليلاً..!!

ولكنها رغم كل ذلك تصل في النهاية..

هنا تكتشف المفاجأة الجديدة.. كان الجميع هناك!

كلهم بلا استثناء.. وهي لم تتوقع هذا ولم تحبه، لكنها تقدمت مجبرة..

تجاهلت بركة الدم التي خاضت بقدميها الحافيتين دون أن تنتبه..

وصارت تطبع بصمتها الحمراء على الرمال كلما تقدمت أكثر..

ظلت تتقدم حتى أوشكت على الولوج في قلب النيران..

نيران هائلة تتأجج وتتطاير في ثورة، ولا تخشى الرياح..

"لقد عرفتِ الطريق إذن!"

o p e i k a n a l . c o m

تصاعد الصوت من كل اتجاه.. لكنها بشكل ما كانت تعرف من يتكلم..

توقفت عن التقدم..

واستشعرت حرارة اللهب تلفح وجهها في جشع ووحشية، لكنها لم تبال..

طفقت تتلفت حولها.. فرأتهم كلهم يبتسمون لها..

شعرت بالخوف لكنها حاولت ألا يبدو عليها هذا..

"مرحبًا بك بيننا للمرة الأولى.. "

تسارعت شدة هبوب الرياح أكثر.. مما زاد من رعبها..

ومع الوقت صار الاحتفاظ بثوبها قائمًا عليها، عملا بطوليا!!

تلفعت بذراعيها.. وتركت الرمال تضرب وجهها وساقيها بمنتهي الحرية..

"أنت منذ هذه اللحظة لنا.. بالكامل!"

بدأت الصواعق تضرب الأرض وتنتشر في السماء، ثم نزلت الأمطار كالسيل..

من بين كل هذا، لاحظت ذلك الظل الكبير..

الذي يهبط ببطء وهدوء..

نحوها......

"وبعدين؟"

"ولا حاجة.. حياتي كلها بقت عبارة عن كابوس مش فاهمة منه أي حاجة!"

"هي لسه الكوابيس الغريبة دي بتيجي لك؟"

"كل ما عيني تروح في النوم، كأن ماليش ماضي غيرها!"

"طب وجوزك؟"

هزت رأسها في يأس..

"مش قادرة أقول لك، ولا كأني عايشة مع صنم.. أنا عارفة إنه بيحبني بجنون، بس مش هايفهم"

"طب انتي حاولتي توصفي له الموضوع؟"

" لا، ومش هحاول.. مش هايفهم!"

قطب الدكتور سمير درويش للحظات قبل أن يفكر.. حقًا لن تنتهي العجائب من هذه الدنيا، إلا يوم ينتهي أجلنا..!

*****

"وانتي رايحة فين كدا؟"

"يعنى! هاشتري شوية كتب، ويمكن أعدي على الكوافير.. إحنا عندنا إيه الليلة دي؟"

"الدكتور عاطف زهران، عازمنا على افتتاح المستشفى الجديد بتاعه، انتي نسيتي ولا إيه؟!"

"لأ، مانسيتش.. عامة إحنا لسه في نُص النهار"

obeikandl.com

"أبعت معاكي محمود السواق؟"

"انت عارف إن عربيتك الكبيرة دي بتخوفني، شبه التوابيت! ومحمود كان هايقع بينا في النيل المرة اللي فاتت، عشان مش متعود على العربيات السبور"

هز رأسه متمتمًا في أسف:

"وماظنّش عنده فرصة يتعلم أي حاجة بعد العمر دا كله!"

ثم التفت إليها بنظرة محبة..

"طب اوعديني تخلي بالك وانتي سايقة"

"أوعدك مأعملش حادثة، بس ما أوعدكش إني أمنعها لو حصلت!"

ثم قالت قبل أن تصفق الباب من خلفها:

"سلام!"

*****

جلست ليلى خلف عجلة القيادة، بعد أن أوقفت سيارتها أسفل البناية، التي تحتل إحدى شققها عيادة الدكتور سمير، طبيبها النفسي. نظرت إلى معصمها، فوجدت أن نصف ساعة لم تزل تفصلها عن موعدها معه. لم تشعر برغبة في الذهاب إلى أي مكان، وفكرت أن تقرأ قليلاً لتزجي الوقت، إلا أنها سرعان ما تراجعت عن الفكرة، وقررت وضع اسطوانة قديمة لفرانك سيناترا، كي يساعدها على الاسترخاء.. وحده كان يقدر أن يحلّق بها بهذا الشكل إلى السماء.

"Softly..
I will Leave You Softly
For my heart won't break
If you should wake
and see me go
so, I will Leave Softly"

ومع النغمات الهادئة، شرد عقلها فراحت بلا وعي تسترجع أحداث تلك الليلة.. يوم شعرت بالشيء الذي دفعها دفعًا إلى اقتحام مكتب الدكتور عوض...

*****

"مساء الخير!"

التفت نحوها كلا الرجلين المتواجدين بالحجرة، أحدهما مذهولاً والآخر متضايقًا..

"أهلا وسهلًا يا هانم.. متهيألي كان في طريقة أحسن من....!"

"ليلى! لسه بتموتي في الطريقة الدرامية في الدخول، عمرك ما هاتكبري أبدًا!"

وانطلق نحوها سليم ليحملها ويضمها إليه بمنتهي اللهفة، وكأنه يخشى ألا تكون حقيقية. للحظات، أصابتها صدمة جراء رد فعله السريع، فابتعدَت

obeikandi.com

عن صدره، متأملة إياه في حذر. امتلأت عيناه بالدموع، وهو يقول مرتجفًا بعد أن أفلتها من بين ذراعيه..

"أيوة يا ليلى، أنا سليم جوزك حبيبك.. انتي فاكراني، صح؟"

تحركت شفتاها دون صوت، فقال بنفس اللهفة الممتزجة بالخوف..

"قولي انك افتكرتيني.. وحياتك اكذبي عشاني المرة دي بس!"

فوجئت ليلى بأن حلقها صار جافًا كالحطب، وشعرت بأن لسانها مقيد في موضعه، يأبى التحرك. قالت بعسر شديد:

"أنا.. شفت لك.. صورة!"

التفت سليم متلهفًا نحو د. عوض، فهز الأخير رأسه آسفًا..

"ممكن تراجع الحالة مع دكتور صفوت، رئيس قسم المخ والأعصاب.. متهيألي هو اللي ممكن يفيد سعادتك"

"أنا سمعت صوتك من بره"

استدارا نحوها في اندهاش وتساؤل صامت، فقالت متلعثمة:

"لما سمعتكم بتتكلموا حسيت إني..."

لم تتم عبارتها، لأنها وجدت من يقتحم الحجرة من جانب آخر، صائحًا، وهو يحمل بين يديه بعض الأوراق:

"كله تمام يا دكتور، صورة الأشعة..."

"ششش! استنى لحظة.."

شعرت بالأرض تميد بها، وكأنها تحولت إلى عود من المكرونة المسلوقة، بينما أحاط بها الرجلان في ترقب وأمل..

"كأني عرفت إنك هنا....."

وكان آخر ما نطقت به قبل أن تغيب تمامًا عن الوعي..

"أنا مش فاكرة......"

*****

"عم طوخي"

"أيوة يا دكتور؟"

"تقدر تروح انت، عندك حد مستني؟"

هز التمرجي العجوز رأسه نفيًا..

"أحسن! مش فايق أشوف أي حد خالص دلوقت.. شكلي هاقرا شوية وأروّح أنا كمان"

"أعمل لحضرتك قهوة قبل ما أمشي؟"

"لا، شكرًا.. لو احتجت هاعمل لنفسي.. اتكل انت على الله"

"ماشي يا ريس، زي ما تحب.. مع السلامة"

"سلام يا عم طوخي"

تأكد د.سمير من انصراف الرجل قبل أن يتناول هاتفه..

"مدام! آه تقدري تتفضلي تطلعي.. من الباب التاني كالعادة.. في انتظارك"

*****

جلست ليلى أمامه صامتة، ترمق حذاءها في توتر..

"أنا وصلت بدري عن الميعاد، بس مارضيتش أطلع قبل ما تكلمني.."

obeikandi.com

قال الدكتور في لهجة أقرب للتحفظ..

"متهيألي مفيش حد غيرنا يعرف إن حضرتك بتزوري العيادة"

هزت رأسها بشكل عصبي نافية..

"ولا حتى..!"

"ولا حتى! مفيش حد خالص، حتى جوزي كان..."

ثم قطعت عبارتها بلا مبرر، ومرت دقائق من الصمت، لم يحاول الدكتور سمير قطعها بأي شكل. حتى قالت هي في النهاية وقد زال بعض توترها:

"تليفونك صحاني من حتة كابوس!"

"انتي كنتي نايمة؟!"

"عيني راحت في النوم ثواني.. وافتكرت يوم ما قابلت سليم أول مرة.."

"وليه الموضوع جالك على هيئة كابوس؟"

حاولت أن تصوغ جملتها بشكل أقرب لما تعني، فقالت ببطء..

"المشكلة إني مش قادرة أفتكر إذا كنت أعرفه قبل كدا ولا لأ.. بس استغربت لما سمعت صوته، وعرفت إنه موجود وأنا معديّة بالصدفة من قدام مكتب الدكتور دا.. عارف؟ أنا حاسة كأني شفت سليم في..."

وصمتت عاجزة عن التعبير، فقال سمير في محاولة لمساعدتها على تجميع الفكرة:

"في حلم.. في كابوس مثلا.. في صورة قديمة عندك؟!"

"لأ، في حياة تانية!!"

obeikandi.com

صمت سمير للحظات مفكرًا، قبل أن يقول في هدوء:

"قصدك إيه بالظبط، وليه استخدمتي التعبير دا بالذات؟"

تنهدت في يأس..

"ماعرفش! لاقيته جاهز على لساني"

"فاكرة طيب إيه اللي حصل بعد ما فقدتي الوعي؟"

"فاكرة كل حاجة كأنها حصلت إمبارح. في الأول الدنيا لفت بيا ووقعت، بعدين صحيت تاني يوم في سريري.."

"وسليم كان موجود ساعتها؟"

"أيوة. قال لي إنه كان لسه راجع حالا من لندن، وأول حد قابله كان دكتور عوض.. خده وراح مكتبه عشان يطمّن على حالتي"

هز سمير رأسه منصتًا إليها، فقالت بشك..

"دكتور صفوت كان موجود هو كمان، وقال إنها صدمة عادية.. وممكن تبقى مؤشر جيد على إن الذاكرة هاترجع لي قريب.. بس أنا ماصدقتوش، كان شكله بيشتغلني!"

وصمتت للحظة، قبل أن تسأله في توتر:

"ماعندكمش حاجة تتشرب هنا ولّا إيه؟"

ابتسم في إحراج، ونهض قائلاً:

"عندنا كل حاجة حلوة.. أأمريني يا هانم!"

"عندكم قهوة هنا؟"

ابتسم متعجبًا، قبل أن يتجه نحو خزانة صغيرة بالمكان:

"طبعًا عندنا.. بتشربيها إزاي؟"

ضمت شفتيها، وسحبت قدرًا من الهواء بسرعة، فأصدرت صوتًا مضحكًا..

"كداهو!!"

ضحك كثيرًا، وفكر أنها بالفعل طفلة.. قالت مستنكرة:

"إيه الحكاية، انت هاتعملها بنفسك ولا إيه؟"

"أنا مش هاتحرك من مكاني، ماتقلقيش.. كل حاجة هنا في المكتب"

وخلال ثوان قليلة كان كل شيء معدًا أمامه على منضدة صغيرة..

"السكر!"

"سادة لو سمحت.."

"انتي مغمّقة الدنيا قوي، جربتي تشربيها بسكر؟"

"أنا على فكرة بحب السكر زي العيال الصغيرة! بس الدكتور بتاعي له تحكماته بقى.. عموما أنا اتعودت عليها، ولا يهمك"

نظر إليها مشفقًا، قبل أن يبدأ في صنع القهوة لكليهما.. قال:

"ممكن تشرحي لي طبيعة الكوابيس دي بدقة أكتر؟ أنا عارف إنها حاجة مرهقة بالنسبة لك، بس حاولي تفتكري أي تفصيلة تقدري عليها.. ممكن؟"

صمتت للحظات قبل أن تقول وقد تسللت أصابعها لا شعوريًا نحو جيدها:

"أنا مش فاكرة تفاصيل بعينها.. بس كل مرة بيبقى فيه دم كتير.. في حصِنة وسيوف وناس لابسين خِوَذ، زي فيلم (الناصر صلاح الدين)! دايمًا

obeikandi.com

بشوف حد عايز يئذيني أو يقتلني.. وماعرفش كل مرة إيه اللي وداني المكان المخيف دا.."

بدت أنها على وشك البكاء، فسارع سمير بمناولتها قدح القهوة وقال في جدية:

"أنا كمان شفت من حوالي سنة كابوس فظيع، مش عارف أنساه لغاية دلوقت.."

التفتت نحوه بفضول، فتابع مقطبًا وهو يتذوق قدحه في عدم رضا:

"برضه زوّدت السكر، وبرضه هاشربها غصب عني! مش أنا اللي عاملها؟ يبقى لازم أشربها.." توجهت نحوه بقدحها في لهجة طفولية..

"تبدِّل؟!"

"لأ، ماحبش أصحابي يموتوا في مكتبي وبسبب القهوة بتاعتي يا ستي!"

"أنا ماعنديش السكر على فكرة!!"

"كدابة، عشان كدا مش هبدّل معاكي.. مش بلعب مع كدّابين!"

"يا عم أنا ماعنديش سكر بقول لك! دا الدكتور بس عايز يحافظ على وزني مش أكتر!"

"ماتقولي كدا طيب.. برضه مش مبدّل!

طب احكي بقى..!"

"أحكي إيه؟"

"الكابوس.. الله؟!"

"آه! ماشي.. في مرة بالليل كنت معدّي من جنب قلعة دراكيولا..."

قاطعته في تذمر:

"ما انت كمان بتكدب أهو.. هاتشتغلني من أولها؟!"

"لأ، دا كان كابوس فعلاً.. وأنا ماكنتش عارف إن دراكيولا ساكن هنا يعني"

تابعته في اهتمام، فقال بلهجة خطرة:

"فجأة لاقيت جوليا روبرتس دخلت بعربيتها من أول الشارع، بتشاور لي عشان ما ادخلش.."

"لحظة! كدا وسعت قوي، دي ماكانتش في الفيلم يا دكتور!"

"بس كانت في الحلم! أجمل حاجة ممكن تحصل لنا إننا نحلم.. لو حلمنا بجوليا روبرتس هانفضل فاكرين الحلم طول عمرنا، كأنه ذكرى جميلة حقيقية، ونستمتع بيه كل ما نفتكره"

"ولو كان مع الأخ مصاص الدماء؟!"

"ساعتها بقى هانحمد ربنا إنه كان حلم، ولما صحينا كل حاجة اختفت!"

للحظات صمتت مفكرة في مغزى كلامه، قبل أن تقول في يأس:

"بس هو بيفضل بالنسبة لي حقيقة.. حتى بعد ما بصحى!"

لم يرد الدكتور، فقالت:

"أنا سمعت إن اللي فاقدين الذاكرة بيحلموا بحاجات من ماضيهم، كأن العقل الباطن بيحاول يتخلص من الحمل الزايد يقوم يخرج جزء منه في الأحلام.."

obeikandl.com

لم يرد مصارحتها برأيه في هذا الكلام حتى لا تصاب بالرعب، لكنه قال:

"مش دايمًا أحلامنا بيبقى لها معنى، يمكن ساعات بتبقى تنفيس عن رغبة مكبوتة، أو تفسير غامض لحاجات مش فاهمينها.. وساعات بيبقى مجرد انعكاس لطاجن مسقعة باللحمة المفرومة، أو صينية بطاطس ضربتيها على العشا!"

"عايزة افتكر أي حاجة، حاجة واحدة بس تثبت لي إني بنتمي للناس دول.. أنا حتى مش عارفة أفتكرني، مش عارفة أفتكر أي تصرف عملته بشكل عفوي، يخليني أفتكر حاجة قديمة، أو تخلي حد يعلّق أو يستغرب"

وكعادتها، وجدت أن لسانها انحشر في حلقها من فرط الانفعال، قبل أن تنطق بصعوبة:

"انت فاهمني؟ انت مافقدتش الذاكرة قبل كدا بس أكيد فاهم قصدي.."

"أنا فاهمك كويس، بس عشان خاطري مفيش داعي للانفعال.. طب سؤال!"

"اتفضل.."

"حاولتي تقري كتابك، اللي إدتهولك صاحبتك دي أو الممرضة بتاعتك؟"

"بتهزر! طبعا قريته عشر مرات!"

"والنتيجة..؟"

"أنا قريت كتب سيرة ذاتية كتير الفترة اللي فاتت، دا ماكنش أحسن واحد فيهم من ناحية الأسلوب أو الموضوعات أو الدقة اللغوية.. بس كان شكله رائع من حيث الخامات وشكل الطباعة. ابقى فكرني أجيب لك نسخة المرة الجاية!"

واستنشقَت نفسًا عميقًا، قبل أن تكمل بصبر نافد: "دي مش أنا، وحتى لو كانت أنا، فأنا مش فاكرة أي حاجة عنها ولا عايزة أكون مطرحها.. أنا حتى لا زعلت ولا انفعلت لما عرفت إن الولد التاني مات في لندن!"

صمت سمير للحظات، وقد أصابه شعور بالألم تغلب عليه سريعًا..

"بس هي ست حلوة، وناجحة، وعندها فلوس كتير.. كمان متجوزة راجل عظيم بيحبها وبتحبه.. إيه المانع؟!"

"انت تقبل تعيش حياة ألفيس بريسلي، وتبقى غني وناجح زيه كدا وطول الوقت البنات محاوطينك.. وفي الآخر تكتئب وتنتحر وتسيب كل دا وتمشي؟!"

"مش بالضرورة، بس أكيد هاقبل لو كنت ألفيس بريسلي فعلا.. ماأظنش إني هرفض أعيش حياتي الحقيقية.. ولو كان في إيدي أختار ماكنتش رفضت حياة سمير درويش"

"دي بقى مالهاش مقياس ثابت، فماتضحكش عليا!"

"يعني إيه، مش فاهم؟"

"يعني إيه اللي يثبت لي إني فعلا ليلى داغر مش واحدة تانية..؟!"

*****

توقفت ليلى عند تلك المكتبة في طريقها، لتشترى بعض الكتب قبل عودتها إلى المنزل. كانت تشعر بالتوتر لموعد الليلة، فهي المرة الأولى لها منذ أفاقت من الغيبوبة. حفلات رسمية، وملابس رسمية، وابتسامات رسمية.. ربنا يستر!

وبالتأكيد سوف يكون من ضمن الحاضرين العشرات ممن يعرفونها بشكل شخصي، وربما كانوا من أصدقائها المقربين.. لكنها لن تتذكر أحدًا منهم، وسيكون الموقف محرجًا للغاية. هي متأكدة من ذلك، ولو كان لديها ذرة واحدة من الشك في احتمالية حدوث العكس لتحمَّست لتلك الدعوة. لكنها على أي حال لا تخشى الموقف بهذا القدر طالما أن سليم سيكون بجوارها.. لن تنسى أن تؤكد عليه ألا يتركها وسط الحفل، ويذهب للوقوف مع أي شخص، سواء تركها وحيدة أو مع آخرين.

وكانت متأكدة من أن زوجها سوف يحرص على هذا حتى لو نسيتْ أن تطلب منه. واعترفَت لنفسها أنها بالفعل تحب هذا الرجل الذي عرفته منذ أسابيع قليلة، ليس لأنه الوحيد بالنسبة لها، وكل من بقي، ولكنها ربما كانت ستحبه حتى لو كان بعيدًا عنها. كانت تعتقد أنها لن تجد رجلاً يحبها بهذا القدر، ولن تجد رجلاً في مثل حنانه وطيبة قلبه.. كان في نظرها عظيمًا للغاية، وهو الشيء الوحيد الذي اتفق عليه عقلها وقلبها مع كل ما قرأته في كتابها.

(سنوات ساحرة)..!

يا له من عنوان سخيف، بالتأكيد سوف تشعر بالعار لو كانت قد اختارت لكتابها هذا العنوان بنفسها!

كانت تشعر بالضيق لأنها أصبحت تجد عسرًا في توصيل شعورها الحقيقي إليه، ربما كان يعتقد أن فتورها تجاهه هو نتيجة غياب الحب، مهما كان عالمًا بما يعتريها من قلق بسبب حالتها، فهو لن يرتاح بالتأكيد لهذا الجفاء. لكنها بالفعل كانت تشعر بأن هذه المشكلة قد أكلت عقلها بالكامل ولم تترك منه ولو بضع فتات لزوجها أو حتى لبقية ذاتها. فقدت رغبتها في شراء أي شيء، لكنها دخلت المكتبة لتنتقي بعض الأشياء بشكل عشوائي، فقط لأنها كرهت أن تعود إلى بيتها خالية الوفاض.

مرت عبر البوابة الزجاجية الأنيقة، ودخلت إلى المكان المكيّف الهواء، المضاء بأسلوب احترافي. كان التوتر يأكلها، إلا أنها تمالكت نفسها، وقد قررت الصبر والانتظار حتى موعد جلستها القادمة مع الدكتور سمير.. لقد قال لها إن مفاجأة سارة سوف تكون في انتظارها المرة القادمة، لكنه لم يرد التصريح بنوع هذه المفاجأة، رغم ضغطها وإلحاحها.. وقال:

"لو قلت لك دلوقت، حماسك هايتبخر بعد ساعة واحدة، ولو كانت المفاجأة كبيرة هاتفضل معاكي يومين بالكتير، بعدها الموضوع هايبقى عادي بالنسبة لك، ويمكن يبقى ممل كمان!"

لم تسمع من قبل عن حلاق، فضلا عن طبيب نفسي، يهب أسرار مهنته للعملاء. لقد كان واثقًا من نفسه لأقصى حد، والحق يقال إنه كان فعلاً على قدر ثقته بذاته وأكثر.. ويكفي أن هذه الثقة هي ما جعلها تطمئن إليه،

وتبوح له بما لا ينبغي أن يقال. وحمدت الله على أنه حتى هذه اللحظة لا يوقف في طريقها إلا أولاد الحلال، فهي ليست بحاجة إلى مزيد من المعاناة.

ظلت تنتقل بين الأرفف تبحث عن أي شيء يصلح.. قبل أن تتجه نحو آلة المحاسبة، محمّلة ببعض الكتب، حيث جلست فتاة ضئيلة الحجم تنقر مفاتيح الحاسوب، وتمرر ماسحًا ضوئيًا من الطراز اليدوي فوق بعض الكتب الجديدة.

"من فضلك؟!"

رمقتها الفتاة للحظات، قبل أن تتكلم بلهجة رسمية، وقد رسمت على شفتيها ابتسامة جذابة..

"أهلا وسهلا يافندم نورتينا.. حضرتك بتزوري المكتبة على طول.. مش كدا؟"

تماسكت ليلى، وكذبت بصلابة دون أن تنجح في مبادلتها الابتسام:

"أيوة فعلا.. أنا ساكنة قريب وعلى طول هنا عندكم!"

"تحت أمرك في أي وقت.. عندنا أوبشن توصيل الكتب لحد البيت، حضرتك ممكن تقري الفلاير دا، هاتلاقي فيه كل التفاصيل وتليفونات المكتبة والإيميلات.."

"آه! ميرسي قوي"

تأملتها الفتاة بنظراتها المتفحصة للحظات مرت كالدهر، قبل أن تقرر الإفراج عنها أخيرًا..

obeikandi.com

"العفو يافندم، نورتينا.. تسمحي؟"

ناولتها ليلى ما تحمل من كتب، فأخذتهم الفتاة لتضعهم أمامها، وعاودت النقر والتحديد لثوان، قبل أن تمد يدها إلى طابعة على مكتبها وتتناول منها ورقة..

"الحساب ٢٨٤,٩٠.. "

تناولَت بعض الأوراق المالية من ليلى، ثم أعادت لها بعض الفكة فوق الفاتورة، وهي تردد جملتها المحفوظة بنفس الطريقة البلاستيكية..

"اتفضلي الباقي! زيارتك شرف لنا دايمًا.. يا ريت تنورينا كتير"

قالت ليلى بصعوبة بسبب جفاف حلقها:

" أشكرك، تسمحي الـ..؟!"

"آه طبعًا، آسفة!"

ومن خلف الطاولة أخرجت الفتاة الكتب، وقد وضعتهم في حقيبة بلاستيكية أنيقة تحمل شعار المكتبة الشهيرة، ومعها بعض المنشورات الدعائية، وقد رسمت على شفتيها الكولاجينيتين بسمة آلية، جعلت ليلى تبادر بالفرار. خرجت مسرعة، وهي تواصل أفكارها بخصوص حالتها.. وتبسّمت في سرها عندما شعرت أن الغد ولابد حاملٌ لها الأفضل. وانطلقت نحو بيتها وهي تضع اسطوانة لفيروز.. غالبًا كانت تتوقع أن تتعرفها الفتاة، فكان لخروجها سالمة من المكتبة، دون أن تلتف حولها الجموع وكأنها لص تم الإيقاع به في طابور جمعية، وقعًا جميلًا أثلج صدرها ومنحها بعض الاسترخاء والهدوء. لا تدرى لماذا لا تستشعر نفس البهجة،

لو استمعت لذات الأغنيات على تلك الاسطوانة بترتيب مخالف لما هي عليه.. وكأن السر في هذه النسخة بالذات؟

في سيارتها، وجدت من ضمن ما اشترته من كتب بعض الروايات المترجمة للأمريكيين ستيفن كينج وجون جريشام، انكسار الروح لمحمد المنسي قنديل، وكتاب عن البيانو. لم تشعر بأنها تحب البيانو، هي تحب الاستماع إلى المقطوعات العالمية، وتستمتع بها، لكنها لم تجد بداخلها ميلا لتجربة العزف. قررَت أن تعرف أكثر عن هذه الآلة، لتكتشف إن كانت سوف تتذكر أم لا.

ولكن كان بين الكتب واحد فرحت به أكثر مما سواه، واندهشَت كثيرًا من كونها اشترته دون أن تدري، بينما هي في أشد الحاجة إليه حقًا. وعندما قادت نحو بيتها كانت أفضل كثيرًا.. وقد تخللها شعور قوى بأن كل شيء صار على ما يرام، أو على الأقل أوشك على ذلك.. وكانت فيروز لا تنفك تغني..

"ليالي الشمال الحزينة..

ضلّي اذكريني.. اذكريني..."

*****

"إيه الأخبار؟"

"تمام يا فندم، هي دلوقت مروّحة على البيت.."

"برضه ماحدش عرف كانت فين؟"

"نفس اللي بيحصل كل مرة سعادتك.. العربية اختفت في نفس النقطة والناس ماقدروش يلاقوها.. بس رصدناها بعد حوالي ساعتين تقريبًا في نفس النقطة اللي اختفت فيها.. واتأكدنا إنها أخدت الكتاب معاليك"

"طب ماشي.. سلام انت دلوقت"

obeikandl.com

obeikandl.com

الْبَاب الثَّانِي

الْبَحْث

obeikandl.com

obeikandl.com

مساء رائق، برغم برودة الطقس النسبية، خيم على شوارع الإسكندرية المغسولة وكأنها جديدة، المضاءة وكأنها قاعة زفاف. وانطلقت السيارة في بطء متعمَّد، تاركة الفرصة لراكبَيها بالاستمتاع بلحظات انتصاف الليل، حيث الضغط المروري الأقل كثيرًا من المعتاد، يمنح المتنزهين شعورًا بامتلاك الحياة. تصاعدت نغمات الماندولين، يعتريها تشويش إذاعي محبب، ويصاحبها الصوت العذب للرائعة دوريس داي، من مذياع السيارة.

"When I was just a little girl, I asked my mother, what will I be?

Will I be pretty?

Will I be reach?

Here is what her say to me:

"Que Sera Sera

Whatever will be, will be!

The future is not allows to see

Que Sera Sera

Whatever will be, will be"

ألصقت ليلى رأسها بزجاج النافذة المجاورة، وأسبلت جفنيها، في إشارة صامتة لعزوفها عن تبادل أي حديث. كانت تفكر وقد تملكها مزيج من

Oudelkandil.com

الغيظ والقلق.. ما معنى هذا الذي رأته، ومن تكون هذه المرأة الشريرة المدعوة لورا، وماذا تريد منها؟

كانت القاعة مكتظة بالبشر إلى حد غير محتمل! كان هذا أول ما جال بخاطر ليلى أثناء مرورها من خلال بوابة قاعة المؤتمرات الكبرى بمستشفي د.عاطف زهران الجديدة. ترتدي ثوبًا أنيقًا من الحرير الأسود المحلّى من حيث الكتفين بالدانتيل من نفس اللون، وقد صفّفت شعرها القصير بشكل ارتجالي، منحها المزيد من الحسن فوق حسنها، وبجوارها كان زوجها الدكتور سليم في حلة أنيقة، يحيط خصرها بذراعه في رقة، وكأنه يوجه إليها دعوة صامتة لعدم الخوف أو التراجع.

مرت ببعض الواقفين في تجمعات صغيرة يحتسون المشروبات الغازية، ورمقتهم بفضول، حينما التفت لها ولزوجها البعض محييًا بابتسامة مع هزة رأس.

حمدًا لله.. لو لم يزد الأمر عن هذا، لكانت هذه الحياة هي الجنة عينها! هكذا كانت تفكر، حين صكت أذنيها تلك الضحكة الصاخبة الحادة..

"دكتور سليم، ليلى هانم.. يا أهلا وسهلا، يا ٣٠٠ مرحبا!"

التفتت نحو مصدر الضحكة والعبارة، فألفت امرأة بدينة على شيء من السماجة. برغم ثوبها الذي يبدو باهظًا، إلا أنها منحت ليلى انطباعًا عامًا بأنها تنتمي أصلا إلى طبقة اجتماعية أقل من التي أدخِلت إليها عنوة. أكد هذا الانطباع مزيج الألوان المنفر الذي تناثر على صفحة وجهها بشكل فج،

متفاعلا مع ابتسامتها الذئبية التي التهمت ثلاثة أرباع وجهها، بينما هي مقبلة عليهما في افتراس ودود. ابتسم سليم وصافح المرأة في أناقة..

"مدام نوران، إزيك إيه الأخبار؟ ألف مبروك المستشفى الجديد"

ثم تلفت حوله في مرح..

"أمال فين العريس؟"

"جاي حالا، جاله تليفون مهم يا سيدي.. بس ماتقولش قدامه عريس أحسن دا ما هايصدق!"

وأطلقت ضحكتها مجددًا، قبل أن توجه الحديث إلى ليلى هذه المرة:

"إزيك يا غالية، وحشتيني.. حمدلله على سلامتك، ربنا يجعلها آخر الأحزان"

وحاولت أن تقترب منها لتلثم وجنتها، وقد تغير تعبير وجهها إلى نموذج صارخ لادعاء الحزن. كانت ليلى شاردة الذهن تمامًا لدرجة أنها لم تنتبه لكلمة واحدة من حديث المرأة، وإذ شعرت باقتراب هجومها المباغت، تراجعت بحركة حادة لكي لا تسمح لها بما تنتوي. ثم قالت دون أن يفارقها شرودها الغريب.

"الحمد لله.. ميرسي، ربنا يخليكي!"

أطلقت المرأة قذائفها البصرية المتسائلة نحو سليم بصورة مزعجة، مما جعله يقول مرتبكًا وقد شعر بالتوتر..

"معلش، انتي عارفة اللي شافته ليلى ماكنش قليل، أكيد انتي مقدرة.. نحمد الله على أي حال!"

obeikandl.com

"ولا يهمك يا غالي.. ربنا يصبركم"

وقادتهما عبر تكتلات البشر اللا متناهية إلى منتصف القاعة، حيث البوفيه، ثم وضعت في كف كل منهما كأسًا من العصير..

"عن إذنكم لحظات بس.. اعتبروا نفسكم في البيت"

وفارقتهما مبتسمة إلى بعض الوافدين الجدد. مال سليم على أذن زوجته هامسًا:

"مالك يا روحي، انتي كويسة؟ تحبي نمشي ولا لما نسلّم على دكتور زهران الأول؟"

منحته ابتسامة مهزوزة وهي تتأمل كل شيء من حولها في توتر..

"لأ أنا هابقى كويسة، ماتقلقش.. خلينا شوية"

تأملها قلقًا للحظة إضافية قبل أن يزفر في توتر. هنا لاحظا معًا أن صوت الهمسات المختلطة من حولهم قد تصاعد أكثر. فالتفتا إلى مدخل القاعة الآخر ليجدا صاحب الحفل وقد تقدم إلى منتصف القاعة في خطوات سريعة ووجه مبتسم.. وقد أضافت حلته البيضاء مزيدًا من الحجم الوهمي إلى كرشه الضخم في الأصل، ليبدو الأمر وكأنه خارج لتوه من فيلم كارتون قديم!!

كان هذا ما فكرت فيه ليلى، لذا لم تستطع كبح ضحكتها الصافية المرتفعة كطفلة هانئة، مما جعل د.زهران يلتفت إليها وزوجها باسمًا في مرح..

"أهلا وسهلا يا جماعة!"

كان الرجل في بداية الستينات. شعره الخفيف الأبيض ووجهه الممتلئ الباسم، كانا موحيين بالطمأنينة بالنسبة لها، مما جعلها تبتسم في صفاء، وتصافحه بلا تكلف..

"ألف مبروك يا فندم"

أطلق الدكتور زهران ضحكة صاخبة أعلى من ضحكة زوجته، وقال هازًا رأسه في استمتاع..

"طالعة من بقك زي السكر.. بس لو قلتي لي (يا عمو) زي ما انتي معوداني هاتبقى أحلى"

وزادت ابتسامته وهو يصافح سليم بحرارة..

"إيه يابني، مالك هفتان كدا ليه.. ماكنوش بيأكلوك في لندن؟"

تمتم سليم بعبارة ما مجيبًا أستاذه، بينما تدخلت ليلى في الحوار، قائلة بلا تحفظ:

"هو سليم كان تخين قبل ما يسافر ولا إيه يا دكتور؟!"

ابتسم زهران وقال ببساطة..

"لأ، مش لدرجة التخن.. ماتقلقيش. أكيد ماكنش زيي يعني على الأقل!"

وربت على كتف سليم قبل أن يفارقهما بابتسامة صامتة..

ظل سليم صامتًا لدقيقة أو أكثر، حتى أن ليلى التفتت نحوه هامسة:

"انت زعلت مني عشان اتكلمت مع دكتور زهران؟"

obeikandi.com

بدت شديدة البراءة، حتى أنه مال على وجنتها وأسكنها قبلة دافئة، قبل أن يقول مبتسمًا:

"أبدًا يا روحي، دكتور زهران دا مربيني، وانتي فعلا كنتي بتقولي له يا عمو.. بالعكس، أنا حسيت إنك بدأتي تاخدي على الجو هنا"

قالت باسمة في وداعة..

"عشان مش عايز تروّح؟"

"لأ عشان بفرح لما أشوفك فرحانة يا مولاتي!"

وكاد أن يميل على وجنتها ليلثمها مجددًا، لولا أن ابتعدت خطوة، وهي تهمس بأنهما ليسا في البيت. فتراجَع خجلاً مما جعل ابتسامتها المرحة تتسع أكثر وأكثر.

قادها من كفها إلى مقعدين في أحد الصفوف الأمامية، بينما صعد دكتور زهران إلى المنصة، وبجواره جلست بعض الوجوه الشهيرة.. لن تندهش لو علمت أن وزير الصحة أحدهم.

بدا أنها قد بدأت في التفاعل مع الجو من حولها بشكل رائع، وأن مشكلتها الأساسية قد تراجعت إلى مؤخرة وعيها، وقد جعل هذا سليم يشعر بارتياح كبير، وبأن الأمور قد بدأت تشق طريقها ببطء نحو التحسن. وبدأ يستشعر أملاً كبيرًا في قرب انتهاء أزمة زوجته إلى الأبد، مما جعله أكثر مرحًا، لا تفارق البسمة شفتيه، ولا ينفك يحيي هذا أو يداعب تلك بأسلوب مرح يفتقر إلى الشكل الرسمي الذي اعتاد مخاطبة الناس به، ولو

كانوا من أقربهم إليه.. حتى أنه أحاط كتفي زوجته بذراعه، ولثم وجنتها أكثر من مرة، كمراهق يصطحب فتاته إلى السينما!

في هذه الليلة تناولت ليلى من المياه ما يفوق معدل استهلاكها الطبيعي خلال ثلاثة أيام تقريبًا! والسبب طبعًا هو جفاف حلقها من كثرة الضحك والكلام.

وحين ألقى سليم نظرة إلى معصمه، فوجد أن الساعة قد جاوزت العاشرة بقليل، تبادل مع زوجته نظرة صامتة فوافقته متحمسة بنظرة مماثلة، وقد بدءا في الاستعداد للرحيل. بحث ببصره عن مضيفه أو زوجته ليلقي التحية ويكرر التهنئة قبل الرحيل، حين اخترق مسامعه دويّ صاخب لإحدى الحاضرات، وقد اكتشفت أن ليلى ضمن الحضور في هذه اللحظة فقط..

" **I Can't Believe it**..!"

تقريبًا التفت كل من بالقاعة نحو مصدر الصيحة في فضول ودهشة، لدرجة أن سليم قد تراجع عما كان يبحث عنه، وتقدم في خطوات سريعة ليحول بين زوجته والمرأة صاحبة الهجوم المفاجئ، وكأنه يخشى أن تأكل منها قطعة. قال في خشونة راسمًا على وجهه معالم الصرامة..

"لورا؟ إيه اللي جابك.. ما اعتقدش إن دكتور زهران بعت لك دعوة!"

قالت البيضاء القوقازية، ذات الثوب الأحمر المكشوف، ببسمة صفراء عارية من الود:

"خوسارة فعلا دكتور "داجر".. (تهيّل) نسي يبأت لي؟!"

"داغر.."

obeikandl.com

"دا.. "داجر"!.. ماقدرتش أفوت مناسبة كيبيرة زي دي!"

"فرصة لإيه بالظبط؟!"

قالت بنفس البسمة السمجة، بينما تنقل بصرها ببطء نحو ليلى الواقفة ترتجف ولا تدرى سبب توترها على هذا النحو..

"خليني أسلم على الست الأول.. أنا موش قليل الذوق!"

وتقدمت تصافح ليلى وهي تتأملها على نحو مستفز، مما جعل الأخيرة تسحب يدها بسرعة وهي تسأل في انفعال..

"انتي مين؟!"

أطلقت المرأة ضحكة عالية أقرب للسخرية، وهي تعاود توجيه حديثها إلى سليم..

"يبدو أن أعصاب زوجتك في حالة يرثى لها يا دوك.. فهي لا تعرفني!!"

تقدم سليم ليحيط كتفي زوجته بذراعه في حركة عفوية، وهو يحدث لورا ببرود..

"العربي مش لايق عليكي خالص.. فكرتيني بأفلام نادية الجندي!"

رفعت ليلى بصرها نحوه في قلق وعدم فهم، فأسكتها بنظرة سريعة وهو ينصت للورا إذ قالت لسليم، بينما نظراتها مسلطة في إزعاج على ملامح زوجته:

"عايز أتكلم معاك.. دلوقت!"

obeikandl.com

لاحظت ليلى أن زوجها قد تبدل تمامًا، فلم يعد ذلك الرجل الطيب المسالم الذي عرفته خلال الأسابيع القليلة الماضية. بل إن نظرة واحدة منها لملامحه، كادت أن تتسبب في توقف قلبها من شدة الذعر!

"سليم!.. مين الست دي؟"

صمت لحظة قبل أن يقول وقد حسم قراره..

"لحظة واحدة يا حبيبتي.. راجع لك حالا!"

وتقدم في سرعة وهو يسحب من خلفه لورا من معصمها بشكل آلمها فتأوهت متذمرة. قال من بين أسنانه..

"قدامي!!"

وعلى مسافة، شاهدتهما ليلى يتخاطبان في برود تارة، وفي انفعال تارة أخرى. دام حديثهما لدقيقتين تقريبًا، قبل أن يتوجها إليها من جديد وقد بدأت تسمع بعض أطراف ختام الحديث..

"يعني لسه قدامَك فرصة زي ما بتقول.. لاحظ إنها تاني مرة، ودا موش كويس!"

"قلت لك إني محتاج شوية وقت، وأنا بنفسي هجيب لك كل الورق لحد عندك.. وبعدين انتي إزاي تدخلي نفسك في مشاكلي بالشكل دا!.. أنا عارف مسؤولياتي كويس، بلاش تنطي لي في كل مكان بقى واكبري شوية"

"We will not.......!"

"ششششش!.. خلاص بقى، نكمل كلامنا بعدين!"

obeikandi.com

وتركها متقدمًا نحو زوجته يخاطبها بلطف وهدوء..

"يالا بينا يا لولا، نبقى نكلم زهران بكرة نعتذر له.. يالا!"

تقدمت معه في خطوات متباطئة، وهي تلتفت لترمق لورا الواثقة البسمة، بنظرات خائفة..

"سليم.. مين الست دي؟ مالها بيا، وتعرفني منين؟"

"هقول لك لما نمشي.. بصّي قدامك وانتي خارجة، ماتعبريهاش!"

*****

"مش ناوي تقول لي مين القرشانة دي؟!"

همست بها ليلى، مغمضة العينين، فاستدار نحوها سليم ببسمة مندهشة..

"هي فعلا كانت قرشانة؟ تصدقي ماخدتش بالي!"

استسلمت لبرودة زجاج نافذة السيارة على وجنتها، فلم تحرك رأسها. فقط فتحت عينيها قائلة في لهجة أشبه بالصرامة:

"إنجز!"

"أبدًا يا ستي.. دي مندوبة شركة أدوية عملاقة، اتعاملنا معاها كتير قبل كدا، وكان عندنا لها أوراق مهمة، بتاعة تركيبة دوا جديد اتفقنا عليها.."

"دوا جديد؟!.. وأنا إيه علاقتي بالموضوع دا؟"

زفر في ضيق قبل أن يكمل..

"المشكلة إني نسيت السيديهاية اللي فيها الملف دا في عربيتك، دورت عليها كتير ومالقيتهاش.. ويوم مالقيتها، كان هو يوم...."

obeikandl.com

"الحادثة..؟!"

هز رأسه صامتًا..

"مش دي المشكلة، لأن فيه نسخة احتياطية من الاسطوانة دي.. المشكلة الحقيقية إن اللي كان محتفظ بالنسخة دي هو انتي!"

رمقته ليلى مصدومة، فأتبع مبتسمًا..

"لأ، مش عايزك تتضايقي خالص.. يستنوا لما تفتكري على مهلك أو يروحوا في ٦٠ داهية، مش فارقة معايا"

"إزاي بقى؟ الست دي شكلها مؤذي، وواضح إن الموضوع مهم بالنسبة لها.. تفتكر ممكن ترجع عن اللي في دماغها لو ما أخدتش الورق دا؟"

رمق في اهتمام اتساع عينيها، وكأنه يراقب طفلة صغيرة..

"وانتي متخيلة إيه اللي في دماغها؟"

قالت شاردة الذهن:

"معرفش! ممكن تخطفني مثلا، أو تبعت حد يئذينا!"

انطلق يضحك مستمتعًا، فضربته في كتفه مغتاظة. قال:

"لأ طبعًا، الأمور مابتمشيش بالشكل دا، الحاجات دي في السينما بس يا روحي! عمومًا لسه قدامنا شهر على المهلة، كمان الشرط الجزائي للعملية كلها مايعديش الستة مليون.. ودا أسوأ احتمال ممكن يحصل!"

قالت مشدوهة..

" ٦ مليون؟؟؟"

"ماعنديش أي مشكلة في دفع المبلغ لو كان دا الحل الأخير.. يعني بعد ما ندفعه هايتبقّى معانا شوية فلوس حلوين برضه!"

"وتعزمني على السينما؟"

"آه، وأغيّر لك الأنتريه كمان!"

رمقته للحظات، ثم أطلقت ضحكتها الصافية، بينما تسند رأسها على صدره في استكانة. وأسبلت جفنيها في اطمئنان، وقد ألغت من تفكيرها وجود مشكلة من الأساس. وبينما كانت هي على وشك النوم تقريبًا، وكان الأسطى محمود يقود بنفس الثبات، وكانت دوريس داي تردد بلا كلل أن أيًا كان ما سوف يحدث، سوف يحدث! كان سليم يفكر أن الأمر قد جاوز كل الحدود وطال أكثر مما ينبغي. ودون أن تلاحظ ليلى، التفت نحوها ليرمقها، وقد اعتلى وجهه تعبير يمتزج فيه التوتر الجم، بالغضب، بالقلق.. وبدا كمن انتوى أمرًا..

*****

في الليلة التالية كانت ليلى في فراشها، تتقلب بين مجموعتها الجديدة من الكتب، وقد احتارت بأيهم تبدأ القراءة. كانت قد تناولت عشاءها وحيدة، فقد هاتفها زوجها وقال إنه سوف يتأخر قليلاً.. ربما يعود في صباح الغد. يبدو أنه أمر معتاد لظروف عمله كطبيب، فضلاً عن مسؤوليته عن إدارة مجموعة شركاته، وكل تلك الأشياء التي لم تتمكن من استيعابها ولم تحاول أساسًا.. فالمهم أنه موجود، وأنه لها وحدها، وأن لديهم ما يقيهم شر الحاجة.

لم تكن تهتم بما هو أكثر، لذا فقد شعرت بالإحباط لأنها سوف تضطر لقضاء ليلتها وحيدة. فكرت في الاتصال بمنار لتأتي، فتضي الليلة معها لمجرد ألا تبقى وحيدة، لأنها تعلم جيدًا أنها لن تنام. إلا أنها أحجمت عن الفكرة عندما لاحظت أن الوقت قد جاوز منتصف الليل.. فقررت أن تقضي الوقت في القراءة حتى يغلبها النعاس.

من بين الكتب اختارت واحدًا في النهاية. كان ذلك الكتاب الذي لم تختاره، ولكنه اختارها، الكتاب الذي فوجئت به بين كتبها عندما خرجت من المكتبة!

فكرت في العودة إلى المكتبة وإعادته للفتاة، لكنها رأت أنه قد تم حساب ثمنه في الفاتورة ضمن ما نقدتها من مال، كما أن عنوان الكتاب قد جذبها بشدة فقررت أنه لها مهما كان.. هل انتقته بينما كانت شاردة الذهن، فلم تنتبه لما فعلت؟ ربما كان هذا هو الأقرب إلى المنطق.

(جمعية الباحثين عن شيء ما!!)

لم يكن الكتاب رواية أو أي نص أدبي عمومًا.. المدهش أنه كان أقرب إلى كتيب دعائي، يتحدث عن نادٍ لفاقدي الذاكرة! ربما كان أمرًا غريبًا أن يقدم مخلوق عاقل على تجربة إنشاء كيان كهذا، فهو يشبه وضع مجموعة من العميان في غرفة مظلمة معًا. لكنها أحبت أن تقرأ تجارب بعض المنضمين للجمعية، وكيفية مساعدة بعضهم البعض في محاولة الوصول إلى أطراف الخيوط المفقودة، وكل هذا من خلال نظام إشرافي طبي محكم، يجمع بين علم النفس، وطب المخ والأعصاب. ربما كان الأمر يداخله

بعض التجارب الغامضة، لم يوضح طبيعتها الكتاب بشكل كاف.. لكن هذا كان مما يزيد الأمر إمتاعًا وتشويقًا، ولا ينقص من قيمته شيئًا بالنسبة لها.

أثارت الفكرة، العديد من الأفكار الأخرى العجيبة في أعماقها، وأطلق في عروقها فيضًا من الحماس اللا محدود، ففكرت أن تتصل بالدكتور سمير لاستشارته في أمر هذه الجمعية، لكنها تذكرت للمرة الثانية أن الوقت لا يسمح، فقررت الانتظار إلى الغد حيث موعد جلستها معه.

وكان آخر ما تذكرته في الصباح عن هذه الليلة، أنها كانت تقلب في صفحات الكتاب، وتقرأ عناوين الفصول.. حين تفاجآت بأنها تستيقظ من النوم، في العاشرة من صباح اليوم التالي.

ebeikandl.com

"انت بتخرّف بتقول إيه؟!"

– "بقول اللي انت سمعته، كل مرة نفس النظام.. حتى بعد ما الرجالة خدوا بالهم وعملوا حسابهم كويس، لسه عندنا نفس المشكلة.. زي ما يكون فيه عفريت بيخطف عربيتها من قدام عينيا، مانشوفلهاش أثر!"

"يا فرحتي بالرجالة! بجد؟.. مستواكم يفرح! قول للبهايم بتوعك يخفوا من الأفيون ويبطلوا بص على النسوان وهما شغالين يا بيه.. الكلام اللي انت قلته لي دا لو اترفع في تقرير ممكن ماحدش فيكم يشوف بيته تاني، وقبل ما تفتكرني بهددك، وتعمل فيها دكر وتتنرفز عليا، أنا كمان معاكم في الورطة الهباب دي"

– "حتة عيلة تعمل فينا كل دا! على فكرة الموضوع كبر في دماغي.. م الآخر يا أنا يا هي.."

"بقول لك إيه، ماتتجننش في عقلك وتحاول تتعرض لها.. انت عارف دي لو اتخدشت ولا شعرة منها اتمست ممكن يحصل لنا إيه؟!"

– "الكلام دا أنا ما أفهموش، أنا مش عارف أتصرف إزاي بس أعرف مين اللي ممكن يتصرف!"

"انت هاتقول له؟! احنا مانضمنش رد فعله.."

– "يعمل اللي يعمله، هو أدرى مننا بيها.. سلام!"

*****

"(جمعية الباحثين عن شيء ما)؟ آه طبعًا أعرفها.. بس انتي عرفتيها منين؟"

قالها د.سمير مندهشًا بينما يمد يده إلى ليلى، كي تناوله الكتاب. فسحبته بحركة عصبية، وقالت محنقة:

"يعني انت عارف إن الجمعية دي ممكن تساعدني وماقلتليش!!"

تأملها للحظات عاجزًا عن الرد، قبل أن يقول في النهاية:

"أنا الدكتور بتاعك يا مدام ليلى، ولازم تتأكدي إن همي الكبير هو مساعدتك في إنك تلاقي اللي ضاع منك.. ولو انتي مش واثقة فيا، يبقى مش ممكن هاقدر أساعدك!"

أصابتها لهجته بصدمة، فتوقف الكلام في حلقها. قال سمير وهو يعفيها بإشارة من كفه:

"وأنا ماقلتش إني عارف إن الجمعية دي ممكن تساعدك.. كل اللي قلته إني عارف بوجودها بس! مازودتش حرف!"

رمقته ليلى وقد اعتراها مزيج من الخجل وخيبة الأمل..

"يعني دول شوية نصابين!"

"ولا قلت كدا!!"

أصابها انفعال مباغت، فقالت في صيحة محنقة:

"إنت بتهزر وإنت شايفني في الحالة دي؟! يعني إيه الكلام دا مش فاهمة!"

"اهدي عشان أعرف أشرح لك.. مش هاتكلم معاكي وانتي متعصبة كدا، عشان مش هاتفهمي من كلامي غير اللي انتي عايزة تفهميه.. ممكن نهدا بقى شوية؟"

زمت شفتيها، وألقت بجسدها على الكرسي مغاضبة في انتظار حديثه، فنزع نظارته الطبية وقال مسبلاً جفنيه بهدوء:

"مبدئيًا، أنا ماكنتش أعرف أي حاجة عن الجمعية دي غير من أسبوع، بالتحديد في نفس يوم الجلسة اللي فاتت. ولغاية دلوقت ماعرفش إن كانت بتتكلم جد ولا بتهزر، ولا بتحاول تنصب بطريقة مبتكرة. وعشان كل دا وارد، مش هقدر أدي رأي فيها غير لو راجعت أسلوبهم في الشغل وعرفت هما بيعملوا إيه بالظبط.. دا اللي خلاني ما أقولكيش لما اتقابلنا آخر مرة، وقلت لك بس إن فيه مفاجأة حلوة مستنياكي، لغاية ما اتأكد من مصداقيتهم.. واللي خلاني استغربت لما لاقيتك عارفاهم، إنهم يادوب بدأوا شغل في مصر من شهر تقريبًا زي ما قالوا لي.. فهمتي حاجة ولا أنا كنت بكلم نفسي؟"

"يعني دا اللي انت كنت...؟!"

"أيوة!"

"طب.. أنا آسفة!"

قالتها في صوت خافت متهدج بعد فترة صمت قصيرة، فرفع سمير بصره إليها ليجدها على وشك البكاء. نهض من مقعده سريعًا واتجه نحو المقعد المقابل لها، وقال وقد أصابه شعور بالذنب نحو ما اعتراها:

"تؤ! وبعدين بقى؟! فيه بنوتة حلوة تعيط كدا وتبوظ الكحل بتاعها؟ أنا مش زعلان منك يا ليلى، بالعكس أنا زعلان عشانك، ونفسي أساعدك.. بس بشكل كويس، مش أي حاجة وخلاص. ولا عايزاهم يجربوا فيكي، يقوموا يفرمتوا لك الشوية اللي فاضلين؟!"

رمقته مبتسمة رغمًا عن دموعها، فبدا شكلها مضحكًا للغاية.. فضحك، وضحكت لضحكه! وانتهى الموقف بلحظة صمت أخرى أطول قليلاً..

"طب اشمعنى بعتوا لك انت بالذات؟"

"أكيد مش أنا بس! متهيألي راسلوا معظم أطباء المخ والأعصاب، والدكاترة النفسانين.. عايزينا نتابع نشاطهم، ونمدهم بحالات يختبروا صلاحيتها للمشروع العلاجي بتاعهم.. حاولت استفسر منهم عن خطة العمل، أو التقنيات اللي بيشتغلوا بيها، لاقيتهم متكتمين جدًا في النقطة دي، وقالوا إن أسلوبهم في العمل سري جدًا، وخايفين من تسريب الفكرة قبل ما يبدأوا يطبقوها، ويضيع عليهم تسجيل الابتكار!"

هزت رأسها في استيعاب مندهش..

"واضح إن الموضوع أكبر من مجرد حقن فيتامين B١.. وكل التهريج دا!"

قال مبتسمًا..

"طبعًا واضح إن الموضوع أكبر من كل دا.. بس السؤال: يا ترى هما شغالين في أي اتجاه؟!"

"انت شاكك فيهم؟"

"جدًا بيني وبينك! والغريب إن ماعنديش أي سبب منطقي للشك دا.. طبعًا دا كلام بالنسبة لموقعي من العلم يعتبر إهانة لشخصي، بس دي الحقيقة.. أنا مش برتاح للغموض، ولا بصدق إلا لو شفت بعيني"

"طب وإيه الحل في رأيك؟"

"مفيش غير حل واحد بس.. وأنا متهيألي الموضوع يستحق التجربة"

نظرت إليه متلهفة، فقال معيدًا النظارة إلى ما فوق أنفه، وهو يخرج بعض الأوراق من درج مكتبه..

"الحل الوحيد اللي يسمح لي أتابع التجربة من قريب وأكون من ضمن المشرفين عليها إني أبعت لهم حالة للاختبار.. ومش كدا وبس! دا فيه عقد من حاجة وستين بند، معظمهم إقرارات وتعهدات وشروط جزائية.. لازم أمضيه قبل أي حاجة، وأبعتلهم نسختهم، ومعاها تقرير مفصل عن حالة الشخص موضوع التجربة!"

"يعني آخرتها هاتحولني لأنبوبة اختبار يا دكتور! ماكنش العشم!! وبعدين إيه حكاية الشروط الجزائية دي؟!"

"تخيلي! أنا لما جمعت المبلغ النهائي اللي مفروض أدفعه لو أسرار التجربة اتسربت عن طريقي، ماعرفتش أعد كام صفر! بس مش مشكلة، ما اظنش هايرموني في السجن مدى الحياة لو مادفعتش.. كلها كام سنة والحكاية تنتهي!"

"انت بتهزر! لو على الفلوس انت عارف، جوزي ممكن......"

"جوزك مايعرفش انك بتزوريني أصلا، هايعرف بالجمعية دي إزاي؟!"

فكرت حينًا قبل أن تقول..

"طب وجوزي ليه؟! أنا عندي اللي يغطي كل مصاريف التجربة.. أنا نسيت إني مليونيرة، وإن مش كل فلوسي هي فلوس سليم!"

قال سمير بلهجة قاطعة..

"ليلى من فضلك، أنا مش هاقبل........"

"ومش هاترفض!"

قاطعته، ثم قالت ببساطة:

"دي تجربتي وأنا المسؤولة عن تكاليفها، لاحظ إنك ضروري بالنسبة لي عشان أعرف أدخل الكورس.."

"انتي كمان وجودك ضروري بالنسبة لي عشان أعرف أتابع المشروع.. بالعكس، انتي يمكن تلاقي دكتور تاني، إنما أنا ماعنديش حد غيرك ممكن أقدم بيه"

"لو فضلت تعتبرني مشروع التخرج بتاعك كدا، هاحلف يمين بالله ما أنا مخطياها! بطل عناد بقى، ماتكبرش الموضوع.. وبعدين يا سيدي لو اعتبرنا إننا لازم نقسم التكاليف علينا احنا الاتنين، خلاص، ماتبقاش تاخد مني رسوم زيارة!"

"والله مش عناد.."

"حساسية!"

"خلاص بقى!"

"طب ياللا اتصل بيهم واحجز لي، ولا فيه حاجة تانية ممكن تمنع؟"

تنهد في استسلام..

"والله فيه كتير، بس أنا مش هاتكلم غير لما نبدأ التجربة.. ونبقى نحكم في الآخر..!"

*****

قاعة مهولة المساحة، مترامية الأرجاء بشكل مدهش بالنسبة لكونها قاعة مغلقة مغطاة. وكان اللون الأبيض يخيم على كل شيء هنالك. الجدران العالية، السقف المضيء، وحتى الأرضية العارية المكونة من قطعة واحدة!

كان المكان باردًا مخيفًا.. يشبه العوالم الافتراضية التي شاهدتها كثيرًا في الأفلام الأمريكية، لكن الأمر كان حقيقيًا بلا أي خدع من أي نوع. وقد ساهم توزيع الإضاءة الاحترافي، مع عدم وجود أي شيء مميز بالقاعة – مثل تابلوه جداري أو مروحة سقف أو حتى قطعة من السجاد – في جعل الغرفة تبدو وكأنها قطعة واحدة من العدم.. مصمتة بلا أبعاد. وكأن عناصرها القليلة طافية بين السحب!

في زوايا القاعة، انتثرت أربعة مقاعد عالية ضخمة، أشبه بمقاعد عيادات الأسنان، كذلك كانت بيضاء. وفيما بين الواحد والآخر مسافة لا تقل عن الثلاثمائة متر! كان هناك ثلاثة أفراد دونها ضمن التجربة..

– "ليلى داغر.. رئيس مجلس إدارة مستشفيات (ليلى).."

– "محمود أو علاء.. لسه مش متأكد!!"

– "عزت السويفي.. ظابط شرطة.."

– "......!!"

– "ولا حتى اسمك..؟!"

– "ماكنش معايا أي أوراق.. الدكتور اللي بيتابعني هو اللي تكفل بكل النفقات!"

كانت الأنثى الوحيدة ضمن التجربة، لكن هذا لم يسهم في جعلها تشعر بالغربة في المكان.. إن الاغتراب والقلق كانا حاضرين بقوة، دون الحاجة إلى أي عوامل إضافية. تقريبًا لم تتبادل الحديث مع أي من الثلاثة الآخرين سوى في اليوم الأول للتجربة، وكان الحديث في مجمله بضع جمل متحفظة للترحيب أو الاستفسار عن شيء ما.. واليوم تجلس في مقعدها العجيب، وترى كلاً منهم عن بعد جالسًا في مقعد مماثل، لا يكاد الواحد منهم يميز تفاصيل أي من الثلاثة الآخرين، جالسين في انتظار ما يجهلون..

لم تستطع تحديد فترة الانتظار بدقة، لأنهم نزعوا عنهم كل الهواتف الجوالة وساعة اليد لغرض لا تفهمه، لكنها اطمأنت عندما علمت أن القاعة بالكامل مراقبة عبر مجموعة من الكاميرات لا تراها، وأن سمير ضمن فريق المراقبين وكان هذا يكفي..

"مرحبًا بكم جميعًا في أول برامج الإعداد والتأهيل..!!"

تصاعد الصوت من كل مكان بالعربية الفصحى، عبر مكبرات صوتية مخفية بعناية. وعلى الفور انتصبت أربع شاشات ثلاثية الأبعاد، واحدة أمام كل مقعد، ومقسمة إلى ثلاث خانات. تحمل كل خانة صورة شخص من الثلاثة الذين لا يشغلون المقعد.

"جمعية الباحثين عن شيء ما ترحب بكم.. وتتمنى لكم قضاء وقت مفيد، وتحقيق نتائج حقيقية ملموسة"

توترت ليلى، وتساءلت عن جدوى تباعد المقاعد إلى هذا الحد، إن كان كل منهم سوف يرى الآخرين بشكل أوضح مما إذا كانوا قريبين منه! ثم أصابتها بعض الطمأنينة عندما وجدت أن الصور في الشاشة أمامها تبتسم في سرور واستبشار، فلم يبد على أي منهم القلق. من الواضح أن الأمر ممتع حقًا، أو هو خليق بأن يكون كذلك.. فلندع القلق جانبًا ولنستمتع قليلا!

"حاول الكثير من العلماء تحديد السبب الرئيس في عملية فقد الذاكرة، أو ضعفها، أو تلاشيها بصورة تدريجية. وحدد بعضهم العديد من الأسباب الأساسية لهذا الأمر.. من بينها إصابات الفص الصدغي الأوسط.. أو نقص بعض العناصر مثل فيتامينات (B١ – B١٢ – A – E)، أو البوتاسيوم أو الفوسفور أو الكبريت أو الحديد.. أو الأورام التي قد تنمو فيما تحت المهاد.. أو احتباس الدم الواصل للمخ.. أو حتى سوء التغذية. وكلها أسباب منطقية وواقعية للغاية.. فنحن لا نشكك في مجهود أولئك العظام الذين أفنوا أعمارهم في محاولات لفهم طبيعة الذاكرة البشرية.. لكن المشكلة الأساسية أنهم بدأوا التعامل مع كل سبب من هذه الأسباب على حدة، وكأنه عامل مستقل.. وتجاهلوا حقيقة أن كل تلك الأسباب تؤدي لنتيجة واحدة في النهاية"

صمت الصوت للحظات قبل أن يعاود الحديث في ثقة..

obeikandi.com

"يشبه الأمر إلى حد كبير عملية الموت! فللموت كما نعلم أسبابًا عدة، تؤدي في النهاية إلى نتيجة واحدة محتومة.. وبما أن سر الموت والحياة خارج إدراك العقل البشري، فلم يجهد الأطباء أنفسهم بمحاولة منع الموت أو إيقافه، لأنهم يعلمون يقينًا أنهم لن ينجحوا في هذا.. لكنهم قاموا بمجهود جبار في محاولة حصر أسباب الموت والحد من انتشار بعضها.. مثل الجلطات الدماغية أو الأزمات القلبية أو الأمراض والأوبئة.. أو حتى حوادث المرور. وتعاملوا مع كل سبب بشكل فردي حتى يصلوا في النهاية إلى نتيجة معينة، وهي الحد من أسباب الوفاة.

نحن لا نزعم أننا نعرف سر الحياة.. لكننا عرفنا مركز الذاكرة بداخل النفس البشرية، وحددنا سبل التعامل معه على الوجه الصحيح.. لذلك أيًا كان السبب الذي أدى لفقد الذاكرة، فهو في النهاية أدى لشيء ما.. ونحن ببساطة نعرف طريقة إيقاف ذلك الشيء!"

ترددت ليلى لحظة، قبل أن ترفع ذراعها بالنهاية في وجل..

"تفضلي!"

قالت بصوت مبحوح محرج..

"كلام حضرتك معناه إن الذاكرة لها علاقة بالنفس البشرية أكتر من الجسم، ومالهاش مركز مادي في الدماغ ممكن علاجه أو استبداله..؟"

قال الصوت في هدوء وبذات الثقة..

"الحقيقة أن الأمر يجمع ما بين علم المخ والأعصاب من جهة، وعلم النفس من جهة أخرى. هناك نظرية وضعها أحد علمائنا قسمت الإنسان إلى

obeikandl.com

جزأين أساسيين.. جزء ملموس، وهو الجسد الذي يشغل حيزًا من الفراغ ويمكن لمسه.. وجزء آخر محسوس وهو النفس بأقسامها المتعددة. وهو جزء لا يمكن لمسه أو رؤيته، ولكن لا يمكن إنكار وجوده وتأثيره على الجسد. بالنسبة للجزء الخاص بالنفس، فقد تم تقسيمه إلى عدة أقسام رئيسية.. منها الضمير، والعقل، والغريزة، والمنطق، والذاكرة.. ومنها طبعًا السر.. وهو الجزء المسؤول عن الحياة عندما تندمج النفس بالجسد. وما يعنينا هنا هو القسم الخاص بالذاكرة. فمن الخطأ أن نعتقد أن المخ وحده هو المسؤول عن ذاكرة المرء.. فما المخ إلا مجرد وحدة للتخزين من ضمن وحدات أخرى عند الإنسان، بينما ما يهمنا أكثر هو الجزء النفسي المختص بإعادة استخراج ما تم تخزينه من معلومات في الوقت المناسب وبالقدر المناسب، وعبر عدة مسارات بالغة التعقيد مهمتها الأساسية هي ربط العناصر ببعضها البعض بشكل منطقي.. حتى تتم عملية الاسترجاع بالشكل السليم.."

وصمت لحظة حتى تتمكن ليلى والآخرين من الاستيعاب، قبل أن يواصل الشرح..

"وفائدة عملية التنظيم تلك، أن ترتب كل العناصر المخزنة من أشكال وألوان وروائح وصور ومفردات وأصوات وملامِس.. وتصنع بينها جميعًا عدة روابط منطقية.. لكي لا تختلط الأمور في أذهاننا فنفقد القدرة على التمييز. بمعنى، أننا عندما نرى ثمرة التفاح، فإننا نتذكر اسمها وطعمها ورائحتها وآخر موقف أكلنا فيه التفاح ومن كان معنا وماذا قال وكيف كان صوته..

ذلك الصوت الذي نسمعه في الهاتف فنتذكر وجه صاحبه على الفور.. هل أمكنكم استيعاب هذا؟"

رفع عزت ذراعه ليلقي سؤالاً بدوره..

"تفضل!"

"معنى الكلام دا، إن ذاكرة الإنسان محتفظة بكل حاجة.. بس احنا بننسى عشان المسارات والروابط بتضيع أو بتبوظ؟"

"برافو يا سيد عزت.. هذا بالفعل هو أحد أهم أسباب النسيان، لكنه ليس كل شيء. فذاكرة الإنسان – والكائنات الحية عمومًا – لا تقتصر على ما عايشه المرء بذاته على المستوى البيئي.. بل إن جزءًا هامًا لا يمكن إغفاله من الذاكرة يعود للعامل الوراثي أيضًا. هل سمع أحدكم من قبل بمصطلح الوجدان الجمعي..؟!"

رفع الأربعة أيديهم على الفور..

"جميل.. هل يفهم أي منكم معنى هذا المصطلح بشكل صحيح؟"

رفعت ليلى وحدها ذراعها عاليًا..

"تفضلي يا مدام"

"أنا قريت إن الوجدان الجمعي، هو انتقال الخبرات والتجارب عبر الأجيال، بشكل وراثي.. ممكن مع توالي الأجيال نلاقي خبرة معينة بدأت تبهت أو حجمها جوانا يصغر بشكل تدريجي.. بس في النهاية، هانلاقي النتيجة النهائية، أو (الخلاصة) موجودة.. وبتخرج وقت اللزوم، عشان تساعد الإنسان على اتخاذ رد فعل صحيح في ظرف صعب.. مثلا!"

"إلى حد كبير اقتربت من الحقيقة، فنحن لم نقض ليالينا نيامًا فوق غصون الأشجار، ولم يطاردنا دب متوحش بينما نجمع التوت البري في الغابات.. لكن كوابيسنا جميعًا تمتلئ بالمطاردات، والسقوط، والعديد من المواقف التي لم نقابلها في حياتنا من قبل، ربما فكر شخص ما: قد تكون تلك الأحلام وليدة الخيال، ليس إلا.. لكن هذا لا يفسر أن نشترك جميعًا في ذات الأحلام ونتبادلها فيما بيننا، ربما بالتفاصيل ذاتها!"

توترت ليلى على الفور، وقد مر بخاطرها تفاصيل الكابوس الرهيب، الذي يتكرر كل ليلة تقريبًا بلا انقطاع.. فبدأت تستشعر برودة الجو بداخل القاعة أكثر من ذي قبل.

ومازال الصوت يتكلم بذات الهدوء المستفز..

"نحن إذن نحتاج إلى عدة عوامل كي نستطيع التمتع بذاكرة طبيعية. العامل الأول هو العناصر التي مرت بنا، أو تخيلناها على مدار عمرنا وتم اختزانها في الذاكرة بواسطة وحدات التخزين. العنصر الثاني هو وحدات التخزين نفسها، والمتمثلة في جزء ما من المخ بالإضافة لذاكرة الأعضاء والخلايا.. فللخلايا ذاكرة خاصة بها بالمناسبة. بمعنى أن خلايا أطراف الأصابع تتذكر الملمس.. وخلايا اللسان تتذكر التأثيرات التذوقية.. وخلايا طبلة الأذن تتذكر الترددات الصوتية التي سمعتها من قبل......!"

رفعت ليلى ذراعها فجأة، وقد انتابتها حالة مفاجئة من الحماس والدهشة..

"تفضلي يا مدام..!"

"لو سمحت.. النظريات دي واقعية فعلا؟! أنا آسفة في السؤال، بس أنا قريت كتير جدًا في موضوع ذاكرة الخلايا دا.. الكلام دا معناه إننا لو قدرنا نخترع جهاز، يقدر يستقبل الحواس البشرية، ويترجم الإشارات العصبية لصور وأصوات وروايح....!"

انحشرت الكلمات في حلقها الذي جف من فرط الانفعال، فلم تكمل عبارتها. مرت لحظات قليلة قبل أن يتكلم الصوت من جديد..

"لا أعرف إن كان طبيبك / وكيلك قد أخبرك أنه قد وقع عقدًا ينص على سرية كل ما يمكن أن يدور بداخل هذه القاعة من حوارات ونقاشات أم لا.. في الحقيقة ليس طبيبك وحده، بل كل الأطباء المتابعين لكم، والذين رشحوكم لدخول التجربة، والذين يراقبون كل شيء الآن. على أي حال كل هذه النظريات تعتبر ملكية خاصة لجمعية الباحثين عن شيء ما.. والجهاز الذي تخيلَت مدام ليليان وجوده، موجود بالفعل وقيد التطبيق، ولا ينتظر إلا دوره في سلسلة الاختبارات التي سوف تجتازونها خلال الأيام القادمة..!"

تفجرت مفاجأته في القاعة كالقنبلة، فأخذ كل من الحضور يتأمل صور الثلاثة الآخرين في الشاشة الكبيرة أمامه، وكأنه ينتظر منهم أي إشارة تدل على صدق الحديث!

"هل تعلمون كيف تم قبول ترشيحكم لخوض التجربة؟!"

لم يتلق ردًا، فتابع..

"أولاً، في حالة الإصابات الخاصة بالدماغ، لا بد وأن تكون الإصابة قد شفيت تمامًا دون أن تترك أي تشوه، أو خلل بوظائف الجهاز العصبي، أو

opeikana.com

أي نوعٍ من الصعوبة في انتقال الإشارات من وإلى المخ. حتى نضمن سلامة وحدات التخزين التي سوف ننقب فيها عما نبحث! لم تتم قبول حالات الآلزايمر بالطبع.. فليس من المنطقي بذل جهد مهما كان، مع مخ مهدد بالتحول في أي لحظة إلى كتلة من الهلام..!"

تأففت ليلى وقد صدمها التعبير، لكنها تابعت وهي تلاحظ أن وجوه الثلاثة الآخرين تتابع بنهم واهتمام كبيرين..

"الشرط الثاني والذي لا يقل أهمية عن سابقه بالنسبة لنا.. هو الاستعداد النفسي لتحريك الصخرة الكبيرة!"

"الصخرة الكبيرة..؟!!"

"من المعلوم أن العقل البشري ينقسم ما بين جزء باطن وآخر واعٍ، والأخير هو ما يتعلق بميكانيكا التذكر وترتيب مسارات التداعي الفكري، وفي نفس الوقت ملاحظة كل العناصر الجديدة، وإرسالها إلى العقل الباطن، وهو القسم الآخر من العقل، والمختص بتنسيق وأرشفة كل العناصر وترتيبها بعد استقبالها من العقل الواعي.. ولأن كم المعلومات التي يمكن اختزانه بداخل العقل الباطن مهول، لا يمكن تصور حجمه، لدرجة أن بعض العلماء قالوا إن ما بداخل ذاكرة الإنسان الواحد من معلومات لو تم تدوينه لملأ ٩٠ مليون مجلد ضخم، ولو وضعت هذه المجلدات واحدًا بجانب الآخر، لامتدت لمسافة ٤٥٠ كم!

فمن غير المعقول أن تظل كل هذه المعلومات في المقدمة طيلة الوقت، لذلك فقد قام العقل الباطن بتصنيف المعلومات والذكريات، وترتيبها،

وتجميدها، فلا تخرج المعلومة إلا عندما يطلبها العقل الواعي.. كأن ترى شخصًا لم تقابله منذ زمن، فيرسل العقل الباطن رسالة إلى العقل الواعي تحمل صورة الشخص واسمه وظروف معرفته وما إلى ذلك، ثم تعود مرة أخرى إلى مكانها في العقل الباطن لتفسح المجال لأمور أخرى أشد أهمية في الوقت الحالي.. ونقطة الوصل بين العقلين الواعي والباطن عبارة عن بوابة ما، مفتوحة بقدر معين، لكي تتحكم في تدفق المعلومات والعناصر بينهما.. فلا هي مفتوحة عن آخرها، فيغرق الإنسان في عالم لا نهاية له من الألوان والأصوات والروائح، ولا يستطيع التواصل مع العالم المحيط به، لعجزه عن استقبال أي مؤثر خارجي، كما يحدث في حالات التوحد.. ولا هي مغلقة تمامًا فيفقد المرء القدرة على استرجاع أي حدث ولو كان قد وقع منذ لحظات، كما نرى في لحظات الصدمة أو الذهول.."

"واحنا إيه تصنيف الحالة بتاعتنا طبقًا للنظرية دي؟ يعني إيه وضع بواباتنا بالظبط!"

"في الحقيقة، إن بواباتكم مفتوحة بقدر مناسب تمامًا.. ولذلك استطعتم استيعاب كلماتي، واستطعتم التواصل مع من عرفتموهم خلال الفترة القصيرة التي تلت الحوادث.. واستطعتم تكوين حصيلة معلوماتية صغيرة، لكنها تعمل بكفاءة، أليس كذلك؟ لكن المشكلة أن الحادث أدى إلى نوع من الانهيار الطفيف بداخل العقل الباطن لكل منكم.. فأدى ذلك بدوره إلى سقوط صخرة كبيرة في منتصفه، قامت هذه الصخرة بدور السدّ، الذي يحتجز خلفه كل العناصر والمعلومات، التي اختزنها طيلة أعماركم السابقة..

وتركت جزءًا صغيرًا خاليًا من العقل الباطن.. هو الجزء الذي تصله البوابة بالعقل الواعي.. فأمكن استخدام تلك المساحة الضئيلة في التعامل مع العالم المحيط، من تخزين وإرسال وتذكر.. دون أن تسمح الصخرة بتسرب أيٍ من المعلومات القديمة التي سبقت الحادث.. هل أمكنكم استيعاب هذا..؟"

أومأ أربعتهم برءوسهم ببطء ودهشة ويأس وحماس..!

"من منكم إذن مستعد لمساعدتي في زحزحة الصخرة الكبيرة..؟!"

*****

"إيه رأيك في الكلام دا، تفتكر فعلا يقدروا يطبقوا اللي اتكلموا عنه؟ تفتكر فيه أمل حقيقي؟!"

تأمل د.سمير ليلى الجالسة في حجرة مكتبه، وقد تضاربت فوق ملامحها مشاعر الحماس، والقلق، والترقب مع الجذل. وهي تلقي بسؤالها..

"إيه رأيك انتي؟!"

رمقته عاجزة عن الرد، فقال:

"والله مش عارف فعلا.. مش هانكر إن طريقتهم عجبتني، وفيها لمسة احترافية عالية. وواضح كمان إن خبراتهم وإمكانياتهم مش قليلة.. بس عندي إحساس إن أسلوبهم مسرحي حبتين، وبيحبوا الأفورة!"

"قصدك على الكراسي البعيدة، والشاشات وكدا؟"

"مش بالظبط.. الحكاية لها سبب، مش هقدر أشرحه لك دلوقت.. أحسن بعدين الموضوع كله يبوظ بسبب حاجة تافهة مالهاش أي لازمة!"

"مش محتاج تقول لي، أنا عرفت لوحدي من غير مساعدة.. بس الحق يتقال كانت فكرة ذكية دخلت دماغي!"

"وعرفتي إيه بقى يا ناصحة؟!"

قالت ببسمة جذابة بها الكثير من اللؤم الصبياني..

"أراهنك، وأنا قاعدة قلقانة مستنية التكتيفة دي تخلص، وبتفرج على تلات وشوش مبسوطة ومبتسمة ومرتاحة.. كان فيه تلاتة غيري كلهم متوترين وقلقانين، وكل واحد فيهم شايف قدامه شاشة عليها تلات وشوش تانيين بيبتسموا! يعني.. عشان يساعدوا على نشر الاسترخاء في المكان من غير مجهود كبير.."

أطلق سمير ضحكة فرحة وهو يهتف..

"يا بنت العفاريت! آسف والله sorry معلش.. بس دي قوة ملاحظة ولا مجرد استنتاج؟"

"في الأول كان مجرد استنتاج، ماكنتش مرتاحة للأسلوب الغريب دا، مش منطقي أبدًا يعني يبعدونا عن بعض، وفي نفس الوقت يخلونا نشوف بعض في شاشات. بعدين حصلت حاجة صغيرة خلتني اتأكدت!"

رمقها في تساؤل مهتم، فأتبعت..

"الجدع دا اللي ماكنش فاكر اسمه! كان عنده حركة عصبية عملت لي قلق، وأنا كنت شايفاه من بعيد عشان كان في وشي تقريبًا.. طول الوقت

يقوم ويقعد ويقوم، زي ما يكون الكرسي بتاعه فيه مسمار! بس برنامج المحاكاة بتاع البهوات ما أخدش باله غير في آخر تلت ساعة من الجلسة لسوء حظهم!"

أطلقا الضحكات المرحة، وتقارع كفاهما في سرور، وكأنهما حققا انتصارًا على هذه الجمعية المتغطرسة، قبل أن يقول الدكتور بجدّية..

"لازم تستعدي كويس للتجربة الأولى اللي هاتتعمل بعد بكرة.. تنامي كويس، مش أقل من تمان ساعات. مش عايزين هفوة بسيطة تبوظ الليلة كلها.. المنبهات بأنواعها ممنوع.. ويستحسن لو وزنك زاد اتنين تلاتة كيلو!"

حيته مبتسمة، وخرجت تفكر فيما قد يحدث بعد مرور الأربعين ساعة القادمة..

obeikandl.com

"**لو** سليم شافني كدا هايقول عليا مجنونة وش.. مش بعيد يرمي عليا اليمين والنعمة!"

هكذا فكرت ليلى، وهي تتأمل صورتها والمكان من حولها بنظرات متشككة. كانت قاعة كبيرة مغلقة مظلمة، ذاخرة بالشاشات والمَراقب والأجهزة العجيبة. بدت شبيهة بغرفة عمليات (BATMAN) كما اعتادت مشاهدتها في السينما إلى حد كبير! وضعوا فوق رأسها خوذة ضخمة، تشبه خوذات الدراجات البخارية، إلا أن قمتها كانت تذخر بالأسلاك الدقيقة والهوائيات القصيرة الحساسة، التي تتصل بأشياء ما لم تهتم بمعرفتها.. ولو اهتمت لما عرفَت!

والسبب هو ذلك الحاجز المنزلق، المصنوع من مادة لدنة شفافة، الذي يغطي نصف وجهها العلوي. والذي تتقافز فوقه نقاط ملونة، تدور في الهواء بلا نهاية، وعلى طريقة الـ Screen saver.. وقد كان ذلك الحاجز هو في حقيقته شاشة صغيرة بالفعل. شاشة مجسمة تكاد ألا تراها، لكنها تتابع عليها حركة النقاط المضيئة، ثلاثية الأبعاد، وكأنها تدور حولها شخصيًا. ومن قلب الخوذة تصاعد صوت أنثوي هادئ يهمس في رقة..

"أنت الآن بين أصدقائك وأحبائك يا ليلى.. الكل هنا حريص عليك، ويهتم لشؤونك.. ولسوف نُسَرُّ للغاية لو وُفِّقنا في معاونتك حتى تعثرين على ما فقدتِ.. ألست تعلمين هذا جيدًا؟!"

هزت ليلى رأسها إيجابًا دون أن تنطق، فقد كانت مشغولة بتبدُّل شكل النقاط الملونة، والتفافها في تحرُّكات رشيقة منتظمة، ذكرتها بعروض الباليه،

ذلك الفن الذي كانت تهتف كلما رأته بأنها لا تطيقه، وهي صادقة.. لكن هذا لم يمنعها من متابعة عروضه في كل مرة تصادفه على شاشة التلفاز، وبمنتهى الشغف والإعجاب.. حتى إذا ما انتهي العرض، عادت إليها طبيعتها، فتنهض متأففة وهي تستعجب من كل هذا الهراء الذي يضيع فيه المرء وقته وماله!

"هل تشعرين بهذا الاسترخاء الذي يسري بأوصالك.. وبهذه السَكينة التي تُحقن في عروقك حقنًا؟ كم هي رائعة الحياة، حين تنتهي كل المشكلات، وتُرفع عنا الضغوط والمسؤوليات.. ولا يتبقّى من الحياة إلا الراحة والخواء والفراغ.. ما أروع أن نترك كل شيء خلف ظهورنا، ونمنح لأرواحنا المكدودة المرهقة، فرصة للراحة والتقاط الأنفاس.. أن ننطلق ونلهو ونمرح.. أن ننام ملء جفوننا، دون منغصات أو مسؤوليات أو التزامات نحو أي شخص أو شيء مهما كان.. اطمئني غاليتي.. لن يضايقك أحدهم ونحن هنا بجانبك.. نحرسك ونسهر على راحتك وحمايتك.. فلتستسلمي لتلك اللمسة الحانية الرقيقة من أنامل حورية الأحلام الحسناء، مثلك.. لا، بل ربما كانت حسناء حقًا، لكنها أبدًا لن تضاهيك حسنًا.. ولن تنافس جمالك الفريد.. ولتنامي هانئة البال.. كلنا هنا، فلا تدعي شيئًا يذهب بطمأنينة قلبك"

كادت ليلى تخبرها أن معها كل الحق، فهي أحوج ما تكون إلى الراحة والنوم بالفعل.. وكادت أن تسترسل، فتصف لها كيف أنها لا تنام تقريبًا بسبب الكوابيس المخيفة التي توقظها في كل ليلة ألف مرة، مذعورة غارقة

في العرق البارد، لكنها لم تجد داعيًا لكل ذلك.. فيبدو أن ذات الصوت الدافئ تعرف.. أليس هذا اختبارًا نفسيًا، كل الغرض منه هو اكتشاف ذاتها، ومعرفة مكنونات صدرها وعقلها؟

لذلك فقد آثرت إسبال جفنيها ببطء دون أن تعلق، خاصة وأن النقاط الملونة قد هدأت حركتها وتباطأت، إلى حد أنبأها بأن العرض قد انتهى.. وآن أوان الراحة أخيرًا. وبعيون مغلقة وأعصاب مسترخية، تلقت كلماتها الناعمة ذات الصوت المنوم كأنها تستمتع بحدوتة ما قبل النوم..

"رائع.. لا تدعي شيئًا يشتتك عن مهمتك الأصلية.. فلتسترخي تمامًا، ولتستمتعي بكل لحظة.. فلدينا في الصباح الكثير من العمل.. لا.. لا تفكري الآن فيما ينتظرك من أعمال.. وإلا فلن تنامي! فكري في جزيرة استوائية نائية.. تدور في سمائها عشرات النوارس البيضاء المبهجة.. وتخيلي نخلتي جوز الهند التي شُد بينهما ذلك الفراش الخلوي المعلق.. هل يروق لك المشهد..؟!"

همهمت ليلى بكلمة مبهمة تفيد الإيجاب، وعلى شفتيها ارتسمت بسمة مسرورة..

"إنه لك يا صغيرتي.. فلتستريحي وتستمتعي بنسمات الهواء الباردة اللطيفة تحت ظلال النخيل.. ولتهنئي بتلك الاهتزازة الرتيبة المدغدغة للمشاعر.. من يهز الفراش؟.. لا يهم.. يكفي أن الحياة صارت أحلى.. فلن نشغل بالنا بتفاصيل مرهقة لا غاية من ورائها..!"

اتسعت ابتسامة ليلى بعيون مسبلة.. وتركت ساقيها تنفردان، وأرخت ظهرها قليلاً وهي تستشعر اهتزازة طفيفة في مقعدها.. طفيفة لكنها ملحوظة، ومحببة. وأنعشت روحها تلك الهبات الخفيفة من الهواء البارد، التي تضرب وجهها كل بضع لحظات، فلم يعد يهمها إن استعادت ذاكرتها أو كانت نهاية العالم بعد عشرين دقيقة!

"هل أنت سعيدة؟.. هل يروق لك هذا؟"

هزت رأسها ببطء إيجابًا..

"هل تتمنين دوامه للأبد..؟"

هزت رأسها إيجابًا بحماس..

"هناك نخلتان أخريان بجوارك.. وبينهما رُبط فراش خلوي آخر يشبه فراشك.. تخيلي من أتى ليرقد هنا، ويستمتع معك بهذا الطقس الجميل بعيدًا عن الدنيا كلها..؟!"

همست بصوت شبه مغيّب..

" سليم.......؟!"

"لا، ليس سليم.. فكري قليلاً!"

قالت بذات الصوت دون أن تهتم بشغل ذهنها لحظة واحدة..

"مش عارفة.. مين دا؟!"

"لنجرب، إن كنت تذكرين هذا الاسم.. إنه فيبوناتشي!"

obeikandi.com

مرت دقائق من الصمت قبل أن تهز رأسها بحركة بطيئة مبهمة، لم تلبث أن تحولت لإيماءة ضعيفة بطيئة، كانت هي كل ماتحتاج المرأة ذات الصوت الناعم لرؤيته..

*****

"هايل يا دكتورة! ليلى بتستجيب للتنويم الإيحائي بشكل رائع.."

قالها سمير في سعادة وهو يتابع الترجمة على ذات الشاشة التي تنقل له صورة ليلى، بداخل الحجرة المظلمة، وقد اعتمرت الخوذة العجيبة. فقالت الطبيبة الحسناء التي تجاوره في ثقة بعربية كسيحة..

"بالطبع يا دكتور سمير.. We are proud to be have the first technology in the world in this specialization.. لقد تذكرَت لغتها الأصلية في ظرف لحظات.. هل رأيت كيف تحول مجري الحديث من العربية إلى الإيطالية في سرعة وسلاسة دون أي صعوبات..؟!"

انشغل سمير بمداعبة أزرار هاتفه الجوال، وهو يتابع الترجمة التي تصف حوارًا بين ليلى وصاحبة الصوت المنوم، التي تجلس على مقربة منهم وقد وضعت على رأسها سماعات للأذن تتصل بميكروفون دقيق جدًا.. لذلك كانت تشير إليهم كل بضع لحظات بخفض الصوت. كان الحوار يدور حول والدة ليلى ووالدها الإيطالي المتوفى، وحياتها قبل الانتقال إلى الإسكندرية.. هذا ما بدا على شاشة الترجمة الفورية، التي كان يقوم بها رجل إفريقي الأصل يجلس في نهاية القاعة، وتقارع أنامله لوحة المفاتيح بسرعة

رهيبة كالأبالسة. راحت ليلى تجيب بهدوء وسهولة أحيانًا، وفي قليل من الأحيان كانت تواجه شيئًا من العسر في تذكر حقيقة ما، فكانت المرأة تساعدها كثيرًا. قال سمير..

"آه طبعًا شفت.. آخر حاجة فهمتها، الكلام عن النوم والاسترخاء وحورية الأحلام.. بعدها السيرك اتنصب فجأة! أنا مابفهمش إيطالي بس بميزها بسهولة أول ما اسمعها"

ابتسمت الطبيبة..

"**Very nice**.. فلنتابع إذن ما يجري، علّنا نصل إلى نتيجة سارة!"

والتفتت إلى صاحبة المايكروفون التي تخاطب ليلى، بنظرة متسائلة، فأجابتها الأخرى بابتسامة مسرورة. يبدو أنهم يحققون نتائج حقيقية. هلموا هلموا.. نريد الانتهاء من هذا الكابوس في أسرع وقت ممكن.. قال سمير متابعًا بتركيز وحماس:

"آه طبعًا، يالا نتابع.. آسف على المقاطعة يا دكتورة لورا.."

*****

"مرحبًا بك بيننا للمرة الأولى.."

تسارعت شدة هبوب الرياح أكثر.. مما زاد من رعبها..

ومع الوقت صار الاحتفاظ بثوبها قائمًا عليها، عملا بطوليا!!

تلفعت بذراعيها.. وتركت الرمال تضرب وجهها وساقيها بمنتهى الحرية..

"أنت منذ هذه اللحظة لنا.. بالكامل!"

openkandi.com

بدأت الصواعق تضرب الأرض وتنتشر في السماء، ثم نزلت الأمطار كالسيل..

من بين كل هذا، لاحظت ذلك الظل الكبير..

الذي يهبط ببطء وهدوء..

نحوها..

كانت تخشاه إلى حد رهيب.. وبذات الدرجة كانت تشتاق إليه!

لم تأبه بتفسير مشاعرها، فالأمر منذ ابتدأ وهو فوق كل تفسير عقلاني.

كانت مستعدة لكل هذا منذ البداية..

منذ أقدمت على تلك الخطوة التي سوف تحمل لها تغيرًا جذريًا في مجرى حياتها إلى الأبد..

لن يعود أي شيء مثلما كان عليه في السابق.. ستبدأ مرحلة جديدة جديدة..

مرحلة تحمل لها القوة والسطوة والسيطرة والعلم والاقتراب.. والرعب....

كان هذا قدرها.. وكان هذا ثمنًا مناسبًا لاختيارها حياتها الجديدة..

ولم يكن لديها مفر من أن تقبل به..

وبرغم استعدادها منذ البداية، وبرغم توقها إلى اللحظة، إلا أنها لم تتخيلها على هذا النحو..

كانت خائفة من كل ما يحيط بها..

obeikandi.com

وحين تفيق من خيالاتها وذكرياتها إلى الواقع، الذي لا يقل هولا ولا غرابة..

فترى اقترابه الحثيث منها..

وتطمئن بوجوده، إلى أن أيًا من هذه المخلوقات سوف لن يجرؤ على الاقتراب منها..

ثم تكتشف أنها تخافه هو ذاته.....!

لم تحاول رفع رأسها لأعلى، فلم تود أن ترى المشهد كاملاً. فقط استسلمت لليد المخلبية القوية، التي امتدت لتقبض خصلات شعرها الثائر، ليس فقط بفعل الرياح.. وتدفع رأسها للانحناء نحو الأرض.. وبصوت كأنه يأتي من قلب أعمق حُفَر الجحيم، خاطبها مجددًا، لتزداد ثورة الرياح.. ويشتد هطول السيل.. وتتفجر الدماء من باطن الأرض في عيون صغيرة لا نهائية، فتعود الرمال لتتشربها من جديد..

"أيتها الفانية البائسة، قبل أن يُسمح لك برؤية وجه سيدك وأبيك.. ينبغي عليك أولاً أداء القسم والعهد.."

أنهى عبارته، ثم شعرت من فورها بخيط من الدماء يسيل من جبهتها إلى حاجبيها في غزارة مرعبة، ليسقط على الرمال في قطرات لزجة ثقيلة. وفاجأها من يهرع إليها بكأس كريستالية أنيقة مترفة، ليحاول استنقاذ دمائها قبل أن تمتصها التربة الجشعة.. هذا قبل أن تستشعر الألم الحارق في موضع الجرح، وكأنه تم باستخدام شفرة شديدة الحِدّة..

"اللعنة.. إنه يستخدم مخالبه بمهارة احترافية عالية!"

فكرت بلا صوت، فأتاها الرد كأنها جهرت بعبارتها وأكثر!

"حقًا قالت الفانية.. وليس هذا بعقاب، بقدر ما هو وسيلة لإسالة بعض الدم الفاسد، الملوث.. أنت تعلمين طقوس تجديد الولاء بالدم.. فلا تتجاوزي"

هزت رأسها مرتجفة من قمة رأسها إلى القدم، سمعته يقول..

"لقد نالك الشرف الرفيع بتلقي نجمة الأسرار.. تراث المعرفة، وذروة الولاء.. ولقد تم كل شيء كما أردنا له بالضبط.. سوف تذكرين كل شيء.. وسوف تتولين الأمر من الآن فصاعدًا.. لقد حان الوقت لتصمت الألسنة.. وتنحني الجباه.. ويراق الدم.. فلتتدخل تعويذة العبودية لإنهاء الأمور العالقة"

كانت في هذه اللحظة تبكي بالفعل.. وهي التي ما بكت من قبل قط.. تبكي رعبًا، وقهرًا، وألمًا.

لكنها لم تبك ندمًا..

وعلى الأرض كادت أن تفرغ محتويات أمعائها من هول الموقف.. لكنها منعت نفسها بكثير من العسر لكي لا تثير غضب سيدها..

"لقد حان الوقت.."

التفتت إلى جوارها لترى اليد الممسكة بالكأس الكريستالية المفعمة بدمائها.. كانت تقترب منها..

من شفتيها......!

*****

obeikandl.com

"إيه اللي بيحصل يا دكتورة، ليلى جرى لها إيه؟!"

صاح بها سمير وهو ينتفض من مجلسه فزعًا، وقد هاله ما رأى على حالة ليلى من تبدل مروع. فقد كانت تجلس هانئة كقطة، لا يرى من وجهها سوى شفتين تحملان ابتسامة راضية ساحرة، قبل أن يبدو على شفتيها وحركتها قلقًا وتوترًا.. ثم تنهض واقفة بشكل مفاجئ، بينما تنزع عن رأسها الخوذة، وتلقي بها في ركن المكان، وعلى وجهها ارتسم تعبيرًا لم يصدق رؤيته. تعبير شخص مجنون يسعى إلى القتل!

نهضت لورا فزعة بدورها، وهي تصرخ في المرأة التي تتولى مخاطبتها عبر الميكروفون..

"What's fuck؟!.. فلتقومي بإنهاء هذه الفوضى حالا.. ماذا صنعت بها أيتها التعسة؟!"

لكن نظرة واحدة من سمير إلى وجه تلك المرأة، جعلته يفهم على الفور.. لقد خرج الأمر تمامًا ونهائيًا عن نطاق سيطرتها. لقد جنت ليلى!

حاول الخروج من الباب المؤدي إلى القاعة، التي تقف فيها ليلى وحيدة، ترمق العدم بذات النظرة الشيطانية، لكن لورا منعته بجذبة عنيفة..

"لا تحاول، أرجوك.. سنعمل على تهدئتها فورًا، ولكن لا تعرض نفسك وتعرضنا لكل هذا الخطر.. You don't know anything about it..!"

رمقها سمير غير مصدق لكل هذا الجنون، ثم صرخ في ثورة وهو ينفض ذراعها عنه..

"انتوا عملتوا فيها إيه؟! قسمًا بالله لأطربق المكان دا على دماغكم لو جرى لها حاجة.. دي على الأقل صدمة نفسية، وديني لاخرب بيتكم.. إوعي!"

وكاد ينطلق مرة أخرى نحو الباب، لولا أن انطلقت صرخة عنيفة من حلق لورا، حملت كل الرعب..

"Oh God! We did that.. Have we brought it back?!!"

والتفت في دهشة مشوبة بالخوف نحو الشاشة التي تنقل له صورة ليلى.. وكان ما يراه لا يصدق.. لا يمكن أن يصدق بحال!

*****

ظلام..!

*****

"معناه إيه اللي حصل دا..؟!"

"دا أقل واجب! دا انت أدرى بيها وبعمايلها مننا.."

"وفين لورا والباقيين؟"

"مافضلش غير لورا، نقلوها العناية المركزة من شوية.. حالتها زي الزفت، واحتمال ماتقومش تاني بعد العلقة دي"

"والدكتور اللي كان مع ليلى..؟"

"ولا جرا له أي حاجة، ولا خدش واحد.. كأن الضربة كانت متوجّهة صح!!"

obeikandi.com

"كل اللي حصل دا وتقول لي متوجهة؟! دي لو كانت قنبلة نووية انفجرت في المكان ماكنش حصل اللي حصل! بس واضح إنها عملت له نوع من الحماية قبل ما تجيب الفيللا كوم تراب.. الله يخرب بيتها على بيت اليوم اللي اشتغلنا فيه الشغلانة الطين دي!"

"طب واحنا هانعمل إيه دلوقت؟"

"هانستنى.. على أي حال هانت"

*****

"أنا فين.. هو إيه اللي.... آه!!"

"ششششش! حمدلله على سلامتك.. ماتتعبيش نفسك خالص، انتي محتاجة ترتاحي"

"احنا فين، ومين اللي جابنا هنا؟!"

"احنا في المستشفى، مستشفى دكتور سليم جوزك.. وأنا اللي جبتك هنا. زمانه عرف كل حاجة دلوقت!"

"عرف إيه؟!"

"عرف إنك بتزوري عيادتي، وعرف بالجمعية اللي رحناها.."

"الجمعية..!"

صاحت بها ليلى ملتاعة، بينما تهب جالسة من مرقدها، وقد انتابتها حالة من التشتت والضياع الذهني..

"إيه اللي حصل في الجمعية؟ أنا آخر حاجة فاكراها الجزيرة الاستوائية، وجوز الهند و.. كان هناك، أنا شفته!"

obeikandl.com

توقفت ليلى عن الحديث فجأة، وقد أصابها الشرود بحالة انفصال تام عن العالم المحيط بها.. فقال سمير الجالس بجوارها يستحثها على التذكر..

"هاه! حاولي تفتكري، مين اللي كان معاكي؟"

"أنا.. أنا كنت تحت تأثير التنويم الإيحائي، صح؟"

هز رأسه مؤمّنًا..

"أيوة، كنتي بتتكلمي إيطالي زي العفريتة، عن أبوكي وأمك، الله يرحمهم.. أنا استغربت إنك بتتكلمي إيطالي بالشطارة دي كلها!"

تأملته في اندهاش وهي تحاول الإمساك بخيط واحد، يذكرها بما حدث وهي تحت تأثير التنويم الإيحائي، لكنها لم تفلح..

"نعم؟! إيه الكلام اللي بتقوله دا!.. وإيه علاقة الحاجات دي بالجزيرة واللي كان معايا، اللي مش عارفة افتكره؟"

"مين دا اللي كان معاكي؟ حد مهم بالنسبة لك يعني؟"

"مش فاكرة حاجة خالص، والله ما عارفة افتكر! زي ما يكون حلم ولا كابوس! مش عارفة أجمع كلمتين من اللي اتقال.."

وزفرت في يأس، فربت كتفها مهونًا..

"يعني أكيد مش جوزك مثلا؟"

ترددت لحظات طويلة، قبل أن تقول بلا اقتناع..

"يمكن، مش متأكدة.. مين غيره تفتكر يعني؟!"

"بتسأليني أنا؟!.. شكلهم كانوا مسيطرين جامد في الجلسة المباركة دي!"

تأملته وهي تتحسس رأسها شاعرة بالصداع وبعض الدوار..

"وانت، بتعرف تتكلم إيطالي كويس؟"

قال في هدوء وكأنه يكتم حملاً ثقيلاً: "يعني على قدي، مش قوي.. بلفابوري سينيورا، دا آخري! كان فيه ترجمة فورية طبعًا، والدكتورة كانت بتشرح لي أول بأول، وتقريبًا فهمت سياق الكلام يعني"

"مين اللي شرحت لك، أنهي دكتورة دي؟"

"مش هاتعرفيها، هي بيضا وشكلها أوروبي وكلامها يضحّك.. اسمها لورا"

"مين؟!!"

"ليلى! وطي صوتك، انطرشتي؟ احنا في مستشفى هنا مش في الملاهي!"

"معقول تكون هي دي اللي...."

ثم كتمت عبارتها عندما ألقى إليها سمير بهاتفه الجوال..

"إيه دا؟!"

"موبايلي! أنا سجلت عليه المحادثة بالكامل، وانتي تحت تأثير التجربة، من غير ما حد ياخد باله.. كنت عايزك تترجمي لي الكلام عشان كان فيه احتمال كبير يحصل اللي حصل، وتنسي.."

*****

ترك سمير ليلى تراجع نص الحديث، دون أن يحاول مقاطعتها، ودون أن يبالي بما يطرأ على وجهها من تعبيرات تتراوح ما بين الدهشة والصدمة والرعب والفهم. وعاد بذاكرته إلى الليلة السابقة، في مقر الجمعية.. قبل الكارثة. واسترجع تفاصيل كل شيء، منذ بدأت تلك الحالة الغريبة تنتابها، وحتى استيقاظها هنا والآن.

وهي – كالعادة – تجهل كل ما حدث. لم ينتو إخبارها بما حدث، كي لا يثير ذعرها.. فربما كان الأمر خارجًا عن إرادتها، وربما كان نتيجة حتمية للتجربة التي مرت بها، والتي لا يعلم طبيعتها على وجه التحديد. فهي في ظاهرها جلسة تنويم إيحائي، وهذا هو كل ما يعلم عنها.. حتى أن نَص الحوار لم يصله بشكل سليم كما تبين له الآن.

من المؤكد أن شيئًا ما شريرًا دار هناك، وأن هذه المسكينة كانت ضحيته بلا ذنب جنته. من المستحيل أن تكون هي السبب حقًا فيما حدث هناك.

مستحيل وألف مستحيل!

تلك الطفلة البريئة، الوديعة كقطة وليدة. لكنه قدر أنها سوف تشرح له كل شيء، بعد أن تستمع لما قالته وسمعته وهي تحت تأثير التجربة، فتفهم كل شيء.. ثم تمنحه تفسيرًا مقنعًا لما رآه منها هناك!

لكنه برغم كل شيء، لم يستطع مسح تلك الصورة المفزعة من خياله. كان مؤمنًا بأنه لن ينسى ما حدث مهما طال به العمر.

لن ينسى الدمار التام، الذي أطاح بتلك الفيللا الهادئة، التي كانت مقرًا لجمعية الباحثين عن شيء ما. مقرًا أصبح – بأثاثه وأجهزته وساكنيه – مجرد كومة من الغبار، في غمضة عين!

كان هو الوحيد على قيد الحياة، باستثناء كومة من العظام تدعى لورا، صار الشك في قرب نهايتها يقينًا. وبالتالي كان الوحيد الذي يمكنه الشهادة بما حدث بدقة. حتى التي كانت هي سبب الفاجعة، لم تكن واعية، ولن تستطيع ذكر كلمة واحدة.

وقرر أنه لن يتكلم. لا يريد لها إيذاءً بأي حال، كما أنه من العسير أن يصدق أحدهم روايته لما حدث، وحتى لو تدخلت جهة تحقيق رسمية لاستكشاف الأمر، سيدعي حينها أنه فوجئ بالانفجار، ولم يلحظ شيئًا

كلا، ولن يخبرها هي حتى بما حدث منها. فالحمد الله على أنها لن تذكر ذلك أبدًا.

وفي قرارة نفسه كان يتساءل كثيرًا.. ما الذي أدى إلى حمايته من الأذى، وخروجه من المأساة سالمًا على هذا النحو العجيب؟ وقد كان في كبد المكان الذي أصيب فيه آخرون إصابات مميتة. لماذا قررت حمايته هو بالذات، ما الذي دعاها إلى الاهتمام بإنقاذه على هذا النحو، وقد كان من الواضح أن عقلها لم يكن شاهدًا على ما كان منها.. وكأنها كانت (أخرى)، فقط لدقائق ثم عادت من جديد.

لم يكن مندهشًا لكونه لم يزل على قيد الحياة، سليمًا بلا ذرة تراب على ملابسه، فقد نال من رؤيتها وما تفعل، ما يكفي! فقط كان يتساءل عن السبب..

"افتكرت.. بس مش فاهمة حاجة خالص!"

التفت إليها متلهفًا..

"افتكرتي إيه؟ أخيرًا رجعت لك الذاكرة؟!"

هزت رأسها ببطء، نافية..

"افتكرت اللي حصل في الجلسة، وافتكرت كلام الست الشريرة اللي كانت بتتكلم معايا. بس مش فاهمة هي عايزاني أقول لها على إيه، وإيه السر اللي كان نفسها أعترف بيه.. ومين ماريو فيبوناتشي دا؟!"

"فيبو...؟!"

"سيبك من كل دا، واضح إنها كانت بتكلم حد غيري أساسًا، بس الغريب إني كنت بكلمها وأرد عليها، كأني عارفة كل حاجة بكل التفاصيل.."

ثم صمتت قليلاً، قبل أن تقول مفكرة:

"معقول كانت بتكلمني عن ناس من دنيتي القديمة، أيام ما كنت لسه في روما؟ معقول قوي.. بس إيه اللي يهمها في تاريخ حياتي، وهي تعرفني منين أصلا؟!"

ونظرت إلى عيني سمير مباشرة..

obeikandi.com

"سمير.. أنا مش فاكرة إيه اللي حصل في مقر الجمعية بالظبط، بس عندي إحساس إن أنا السبب في اللي حصل دا. الكلام دا صح ولا غلط؟"

"وبعدين يا ليلى.."

"أنا مش عيلة صغيرة يا سمير، أنا ماعنديش حد أثق فيه غيرك، في الدنيا الغريبة دي اللي مش فاهمة هي عايزة مني إيه بالظبط؟ أنا حاسة كأن كل حاجة بتحاربني، زي ما أكون عايشة في مؤامرة كبيرة! واللي بيحصل دا مالوش غير معنى واحد بس، إني فعلا غلطت غلطة كبيرة، بس أنا مش قادرة أفتكر أي حاجة خالص، ودا اللي معذبني. أنا مابقيتش واثقة في أي حد غيرك يا سمير، انت واثق فيا؟!"

قال في صدق محايد، خال من أي انفعال:

"طبعًا يا ليلى، ما أظنش حد قرب منك زيي، وعرفك على طبيعتك، خصوصًا بعد الحادثة.."

قالت شاردة الذهن..

"فعلاً.. ولا حتى سليم جوزي!"

بهت سمير لهذا التصريح المخيف، وآثر عدم التعليق، فقد كان يفكر ماذا يمكن أن يلحق به إن كان زوجها يستمع إليهما الآن. بكل تأكيد يقدر الرجل على شطب اسمه من سجلات النقابة فورًا، بل ومن سجلات الدنيا كافة! وربما اعتبره الناس كأن لم يكن من الأصل، لو رغب سليم داغر في هذا.

إن الرجل مسالم نقي، لا يهوى استخدام هذه الأساليب الوضيعة، التي يتبعها معظم ذوي السلطة في هذا البلد، لكننا نتكلم عن زوجته وحبيبته.. فللكلمة أكثر من مليون معنى بالنسبة له.. ترى بأي شكل سيفهمها سليم؟!

"فعلاً.. ولا حتى سليم جوزي!"

واعترف لنفسه أن هذا الشعور الجارف بالذنب، وتلك الدورة الطويلة المضنية التي قام بها عقله لدى سماعه العبارة، لم يكن لها من سبب سوى أنه بدأ يميل إليها حقًا، تلك هي الحقيقة!

إنه مرتبط بالفعل بابنة عمه الحسناء التي طالما تمناها، نيرمين. فما الذي يعنيه هذا الشعور المفاجئ، الذي سبّب له انقلابًا في كل حواسه ومشاعره؟ كان باعتباره طبيبًا نفسيًا يعلم جيدًا أنه من الطبيعي أن يشعر بميل تجاه أكثر من أنثى في ذات الوقت، لكن الأطباء النفسيين يلجأون إلى زملائهم أحيانًا لأنهم نسوا بعض الدروس الهامة! هل سحرته؟!

فكر أن هذا هو الحل الأقرب للمنطق، والذي يسمح له بأن يفكر في أنثى أخرى سوى حبيبته وخطيبه التي لم ينلها إلا بعد معاناة، والذي يسمح له باختيار زوجة سليم داغر بالذات ليفكر فيها!

ورغمًا عنه خرج بأفكاره إلى الواقع، فلم ينتبه لتلك الضحكة العجيبة الساخرة، التي انطلقت من حلقه، بسبب هذه الفكرة الأخيرة..

"بتضحك على إيه.. لسعت منك خلاص؟!"

obeikandl.com

"باين كدا! سيبك مني دلوقت وقولي لي، تفتكري إزاي ممكن نوصل لحد يعرفك فعلا.. عندك فكرة نبدأ البحث منين عن أي معلومة موثوقة تخص حياتك؟"

هزت رأسها نافية بعنف، وكأنها تتمنى انفلات عنقها من منبته، لشدة غيظها. تأمل هو شعرها الثائر، الذي ظل يروح ويأتي مع حركة رأسها العصبية بشكل رائع. فقال بلهجة خرجت رغمًا عنه حالمة خافتة..

"عندي فكرة!"

رمقته بعينيها الواسعتين، كطفلة لا تصدق أن أباها قد أوفى بوعده حقًا، وأتاها بلعبة طالما تمنتها. لكنه لم يكد يفرج شفتيه للإعلان عن فكرته، حتى انفتح الباب بعنف، وانطلق عبره سليم كالقذيفة نحو زوجته، ينهال على كفيها ضمًا وتقبيلاً..

"حبيبتي، حبيبتي يا ليلى.. مش ناوية تبطلي شقاوة بقى؟ كل ما أسيبك تروحي مكان لوحدك، ترجعي منه كدا على المستشفى على طول؟!"

تركته يضمها إليه، ويسعد بحقيقة أنها لم تزل على قيد الحياة، وتركت لنفسها المسرّة بكل هذا الحنان الحقيقي، واللهفة التي تدل على شدة عشقه لها. واستشعر سمير من نظرات عينيها أنها تلوم نفسها لأنها فكرت في زوجها بشكل سلبي للحظة.. فنهض دون أن يحفل بإلقاء السلام، وقدّر أنه لن يلتفت إليه أحدهما، إلا أن سليم ناداه قائلاً..

"دكتور، رايح فين؟ عندك مانع تشرب معايا القهوة؟ عايزك تفهّمني حالة المسكينة دي، لو مافيهاش إزعاج أو عطلة"

قابل سمير لهفته وكرمه، بابتسامة واسعة..

"تحت أمرك يافندم، دي حاجة تسعدني.. بعد إذنك، هاستنا بره.."

والتفت نحو ليلى بهزة رأس..

"حمدلله على سلامتك يا مدام.. أنا هاستأذن دلوقت، وإن شاء الله ليا قعدة مع الدكتور اللي بيتابعك"

هتفت ليلى..

"بس أنا سليمة أهو يا دكتور، انت عارف إن مفيش حاجـ..."

لم تصله بقية عبارتها، بعدما أغلق الباب من خلفه في هدوء، واتجه رأسًا نحو مخرج المبنى، ثم انتقى أحد مقاعد الانتظار، ليلقي ببدنه إليه ثم يشعل سيجارة. ظل ينفث الدخان بعمق، وهو يفكر في حقيقة أنه كان غبيًا مرتين.. مرّة حين فكر في ليلى للحظة من اللحظات، بشكل يختلف عن كونها مريضته. وابتسم بشدة لهذه الخاطرة، كأنها موقف طريف حدث مصادفة مع شخص غريب، فلم يملك حياله سوى الابتسام.

والمرة الثانية، حين لم يفكر في هذا الحل البسيط منذ البداية. وفي هذه المرة كان لابتسامته لون مختلف، لون شروق الشمس على جزيرة استوائية نائية، وممتلئة بنخيل جوز الهند..!

obeikandi.com

"الإنترنت..!"

قالت ليلى الجالسة على ذات المائدة، قبالة الدكتور سمير في ذلك المطعم، وقد وضعت نظارة سوداء عريضة، متشاغلة بتقليب محتويات كوب الآيس كريم أمامها..

"إشمعنى!"

قال سمير ببساطة..

"انتي مش مجرد ست عادية، ساعات بتنسي انتي مرات مين، وتنسي دورك الاجتماعي خلال السنين اللي فاتت، المفروض إن العالم كله يعرفك، ومش ذنبك إني لا بتفرج على تليفزيون ولا بتابع جرايد.. يعني أي محرك بحث أكيد هايكون عنده مفاجآت كتير لو بس كتبنا له اسمك!"

"تعرف إن دا السبب الوحيد اللي خلاني أختارك من بين كل الدكاترة النفسيين في اسكندرية؟"

"إني عبقري!"

"لأ! إنك اتعاملت معايا عادي جدًا، من غير ماتحسسني إني تمثال أو تابلوه متعلق ع الحيطة!"

وصمتت للحظات مفكرة قبل أن تقول..

"يعني تفتكر إني........"

وقطعت عبارتها، قبل أن تكمل في نغمة يسيطر عليها الاستسلام والإرهاق..

"طب انت جربت؟"

"طبعًا! بس كل اللي لاقيته شوية كلام فاضي.. تحميل نسخة من كتابك، شوية صور في مناسبات رسمية، مقال ولا اتنين عن نشاطاتك في مجال الخدمة الاجتماعية.. يعني من الآخر، ولا حاجة!"

"آه! وانت عايزني أجرب بنفسي، يمكن الاقي حاجة تعجبك!"

قال مبتسمًا..

"لأ مش بالظبط، بس أنا كنت بجرب باسم ليلى داغر أو ليليان داغر.. متهيألي لو جربنا مع اسم تاني..."

"اسمك مثلاً؟!"

"لأ اسمك انتي يا لمضة، بس قبل ما تتجوزي سليم داغر!"

*****

توقعت ليلى بينما تقرب رأسها من رأس سمير، لتنال مجال أوضح من الرؤية أمام شاشة الحاسوب، أن نتيجة البحث عن (ليليان فان أورتن) لن تفضي إلى شيء حقيقي، لأنها تعلم أن الجانب الأهم من حياتها بدأ مع اقتران اسمها بداغر. فلم تكن تعتقد أن هناك من اهتم بها قبل ذلك لدرجة أن يدرج لها أي بيانات على شبكة الإنترنت.. لذلك فإن شعورها بالصدمة حيال نتيجة البحث كان منطقيًا للغاية!

* زواج الملياردير المصري سليم داغر من ليليان فان أورتن بعد قصة.....

* حفل توقيع كتاب ليليان فان أورتن الشهيرة بـ...........

obeikandl.com

* الحكومة السويسرية تفتتح القاعة الجديدة بالمتحف الوطني.... تمثال... فان أورتن، ليليان..

* تواصل السلطات البريطانية البحث عن مرتكبي تلك الأفعال.. مقابر.. فان أورتن.. رأس..

* ريتشارد فان أورتن، ليليان.. جار البحث عن.. لندن.. تم نبشها من قبل بعض الـ....

* لمشاهدة صور التمثال الأسطوري.. يعود إلى القرن.. فان أورتن.. حصريًا على..

لدقائق تجمدا كلاهما أمام الشاشة ذهولاً ودهشة، ثم تبادلا في النهاية نظرة تحمل الكثير. ودون كلمة واحدة امتدت أنامل ليلى لتحيط بالمؤشر وتختار أحد الروابط..

* لمشاهدة صور التمثال الأسطوري.. يعود إلى القرن.. فان أورتن.. حصريًا على..

وتابع سمير النظر إلى الشاشة وهو يستشعر إثارة لا حد لها..

"... ومن ضمن ما تم اكتشافه مؤخرًا من آثار نادرة لتلك البلدة المنكوبة على الساحل الجنوبي لبحر الشمال، ذلك التمثال المعجزة، الذي احتار في أمره كل من رآه من فنانين تشكيليين أو علماء فيزيائيين.. فالتمثال المصنوع بالحجم الطبيعي والذي يعود عمره التقديري لأكثر من قرنين.. كان يمثل امرأة ترتدي ثوبًا حريريًا مكشوف الكتفين، وتتحلى بما

يماثل ما اعتاد سكان تلك البلدة ارتداءه من قلادات أو حليّ بدائية الصنع.. المدهش أن ذلك النوع من الحليّ المصنوعة من عظام الحيتان، لم يظهر إلا في هذه البقعة النائية من العالم.. مما يلقي بتساؤلات هامة حول الثوب الحريري الخفيف الذي لا يناسب الطقس شديد البرودة هناك بأي حال.. ولكن هذا ليس كل شيء.. فقد صرح كل من فحص التمثال من خبراء أن الخامة المستخدمة في صنعه لا يمكن أن تكون إلا جليدًا معالجًا بحيث لا يذوب تحت أي ظرف!!

وأقر الجميع أن تلك التكنولوجيا ليست متاحة في هذا العصر أساسًا، فضلاً عن زمن صنع التمثال..!

وأضاف الدكتور إدوارد كلارسون أستاذ التاريخ الطبيعي بجامعة كامبريدج، إن لهذا التمثال المدهش الذي تتكون جزيئاته من ذرتي أوكسجين وذرة واحدة من الهيدروجين فضل عظيم في لفت الأنظار إلى تلك البلدة التي ذهبت عن آخرها، فلم يبق منها أثرًا واحدًا إلا وطمسته الثلوج مع مرور الزمن..

المثير للدهشة أن التمثال وجده مستكشف أوسترالي بالمصادفة البحتة عقب انتهاء إحدى العواصف القوية، التي تسببت في تغير معالم المنطقة، وأزاحت أطنانًا من الثلوج من فوق بعض أجزائه، فرآه ولم يصدق في البداية أن هذا الشيء لم يختلط بما أحيط به من جليد على مر العصور، فيصير جزءًا من كل هذا.. بل ظل محتفظًا بكيانه للنهاية برغم كل شيء...............

.... وله قاعدة ترتفع لما يزيد عن قدمين، مكتوب عليها بحروف لاتينية:

" هدية السماء.. لك الخلود ولنا السعادة بوجودك بيننا.. نحن نمتن لـ "ليليان ريتشارد فان أورتن"...

...... المتحف الوطني السويسري.. القاعة الجديدة.. مؤتمر صحفي..."

قال سمير مندهشًا..

"واضح إن تركيبة الاسم مشهورة في أوروبا!"

"الاسم ثلاثي.. غريبة قوي!"

"لأ مش غريب ولا حاجة، انتي تعرفي عندنا في مصر فيه كام ألف واحد اسمه (أحمد عبد الله السيد) أو (محمد علي محمد).. أمال هما اخترعوا الأرقام القومية ليه!"

"طب خلينا نجرب دا.."

* ريتشارد فان أورتن، ليليان.. جار البحث عن.. لندن.. تم نبشها من قبل بعض الـ....

"... ويبدو أن العام ١٩٧٨ أبى إلا أن يبدأ بشكل مختلف لافت للأنظار.. وكان العبء مكثفًا بالنسبة للسلطات الأمنية في المملكة المتحدة، التي تواجه ضغوطًا جمة من قبل كل الجهات المعنية بخصوص قضية نبش المقبرة الأثرية للساحرة الإيطالية "ليليان ريتشارد فان أورتن"..

وترجح بعض الأقاويل أن جماعة (عبدة الشيطان) الوليدة هي المسئولة عن هذا العمل الرهيب.. وقد أبدى مسؤول أمني تشككًا يفيد بأن الفاعل ولا بد لص متخصص في جرائم الآثار.. فمن المعروف أنه قد تم عرض مبالغ طائلة من قبل العديد من المتاحف العالمية مقابل الحصول على رأس "ليليان" البالغ من العمر ما يزيد عن مائتي عام.. وقد صرح البعض أن هذا الرأس قد وجد ضمن بعض الآثار المتخلفة عن قرية بدائية تم ردمها تحت الجليد لقرون، وهو الشيء الوحيد الذي أبقاها سالمة بعيدًا عن التحلل طيلة تلك الفترة الطويلة.. كانت هناك بعض الأشياء الأخرى القليلة، تم وضعها في المتحف الوطني السويسري، من بينها تمثال شديد الغرابة منقوش عليه اسم الفتاة، وهو ما دل على هويتها، عندما تمت مقارنة الاسم ببعض المخطوطات القديمة التي وجدت هناك، والتي يتضح منها أن الفتاة كانت تمارس السحر وأنها ارتحلت من وطنها هربًا من حكم بالإعدام صادر من القصر مباشرة!

وكان الرأس المقطوع هو الشيء الوحيد الذي ظل باقيًا منها، مما يرجح أن بقية الجثة تم حرقها كما كان متبعًا في تلك الحقبة.. والمدهش أن السطو على المقبرة تم في الليلة التي تلت الإعلان عن افتتاحها مباشرة......

وكانت الأساطير ترجح.. تسلل.. نبش المقبرة....

التحديث الأخير تم بتاريخ ١٦ /٧ / ٢٠٠١ لمزيد من الروابط المتعلقة بـ.... "

قال سمير بينما يشعل سيجارة، وقد اقتحم ذهنه مشهد نسف مقر الجمعية، بشكل عنيف مما أصابه برجفة..

"تفتكري الموضوع دا له أي علاقة بيكي؟ احنا كدا بنضيع وقتنا ع الفاضي..."

"استنى!"

منعته قبل أن يغلق نافذة البحث، ثم نهضت متأملة المارة من خلف نافذة المكتب العريضة، وقد اعتراها الشرود..

"دا أنا بفكر في حاجة تانية خالص، بس عشان خاطري آخر مرة، دور لي على الصور المتعلقة بالاسم دا!"

تحركت أصابعه فوق المؤشر، لتتجه صوب زر البحث في الصور وهو يتساءل عما قد يجدانه..

"تعالي يا ليلى، دي صور التمثال اللي في المتحف الوطني في سويسرا.."

"شبهي قوي؟!"

تجمد سمير أمام السؤال المباشر، فلم ينطق. وتوجهت ليلى نحو الحاسوب، ثم قامت بتحميل الصورة، كانت بعيدة غير واضحة المعالم.. إلا أن هذا لم يحرك في نفسها الشك تجاه الحقيقة الجديدة التي سكنتها.. إن هذا التمثال لها، وإن تلك الساحرة التي يتحدثون عنها ليست في الحقيقة إلا هي شخصيًا!

obeikandi.com

في لهجة مندهشة تشوبها الريبة، قال سمير ببطء وكأنه ينصت لأفكارها العجيبة..

"بلاش عبط يا ليلى، ماتخليش الأفكار الخايبة دي تملا دماغك.."

كانت خائفة، لكن لهجتها أتت مخيفة رغمًا عنها..

"انت مش فاهم.. نسيت الكوابيس اللي حكيتها لك، ونسيت اللي حصل في مقر الجمعية من كام يوم، بس أنا افتكرت.. أنا هي!"

"إزاي بس! دي حكاية فات عليها ييجي......"

قاطعته وهي تضرب بكفها سطح المكتب..

"ماتسألنيش! كل اللي أنا متأكدة منه هو اللي قلته لك، احنا هانكلم المستشفى نسأل على اللي اسمها لورا دي. لو فيه حد يعرف عني حاجة أكيد يبقى هي.. لازم أفهم مين اللي عمل كدا!"

"مين اللي عمل إيه يا مجنونة انتي؟!"

"مين اللي اتجرأ، ورجّعني تاني من الموت!"

*****

"لورا، تعيشي انتي!"

قالها سمير بلهجة بائسة، بعد أن وضع سماعة الهاتف.. ثم نزع سترته وفك ربطة عنقه وتوجه نحو النافذة ليفتحها عن آخرها، وكأن جدران المكان تطبق على روحه..

"مالك، الخبر زعلك ولا إيه؟ عمومًا كان متوقع.."

استند سمير بكفيه إلى حافة النافذة، وكأنه يعانى دوارًا شديدًا، ثم التفت نحو ليلى مرهقًا..

"أنا معرفهاش عشان أزعل ولا أفرح، ربنا يرحمها.. انتي بجد مصدقة اللي قلتيه لي من شوية دا، لدرجة إنك صدقتي نفسك وخلاص بقيتي ساحرة شريرة، ومش فارق معاكي البنت اللي ماتت؟"

صمتت ليلى للحظات، قبل أن تقول بلهجة هادئة لا تتناسب مع ما يموج به صدرها من انفعالات شتى..

"دي مش مجرد بنت، دي دكتورة شريرة.. عملت حاجة في عقلي، ودخلتني تجربة معرفش الغرض منها إيه"

قال سمير بلهفة الغريق الذي لا يصدق أنه قد وجد قشة النجاة أخيرًا..

"طب ما هي أكيد التجربة دي هي السبب في الأفكار الغريبة اللي بتيجي لك.. مش جايز تكون زرعت في عقلك معلومات وأفكار حوالين الساحرة دي؟"

تأملته بنظرة مشفقة..

"والكوابيس اللي بشوفها كل ليلة، دي كمان أثر رجعي للتجربة؟!"

قال بلهجة لم تنجح في إقناعه هو ذاته..

"طب ما يمكن انتي من نسل الساحرة دي مثلا؟ ودا السبب في الكوابيس اللي بتشوفيها! انتي نسيتي الكلام عن الوجدان الجمعي والنظريات دي ؟!"

"دا كل اللي عقلك وصلك له يا دكتور؟! كان نفسي يكون عندك حق، بس دا ما يفسرش تطابق الأسامي، ولا الشكل، ولا كل الحقايق الواضحة زي الشمس دي.."

قال سمير ثائرًا..

"مفيش تطابق في الشكل، انتي بتبصي على تمثال شفاف أهبل بقى له ييجي ٢٠٠ سنة؟ انتي اللي عايزة تصدقي إنك هي، زي ما تكوني شبطتي في لعبة! إيه الجنان دا؟"

صمتت ليلى للحظات وقد غلبتها الدموع، فسالت على وجنتيها في حرارة.. بالنهاية انفجرت في البكاء وهي تهتف:

"انت بتزعق لي ليه دلوقت؟ الله!"

وأدارت وجهها سريعًا قبل أن تنتزع حقيبتها من فوق المكتب وتتوجه نحو الباب..

"استني يا ليلى، حقك عليا.. رايحة فين بس؟"

قالها سمير بتعاطف، وقد تملكه شعور قاس بالندم، فتوقفت ليلى وهي تفرك عينها دون رد مواصلة البكاء دون أن تنظر إليه. توجه إليها بنظرة معتذرة، ومد كفه إلى وجنتها كي يمسح دموعها..

"بس خلاص كفاية وحياتك.. اهدي بقى"

أصابتها لهجته الحنونة في مقتل، فأجهشت بالبكاء مرة أخرى، وألقت برأسها على كتفه.. ضمها إليه بقوة، وربت رأسها وهو يهمس..

"هووو! وبعدين بقى؟ طب كفاية عشان خاطري، ماشي؟"

استسلمت لحضنه الدافئ، وقالت بصوت متهدج بسبب دموعها..

"انت الوحيد اللي ممكن تحس بيا.. أنا كل يوم بموت وأنا مش عارفة أنا مين، ومين الناس اللي أنا عايشة معاهم دول، عارف يعني إيه تبقى لوحدك في الدنيا كلها؟ حتى اسمك مش فاكره.. أنا عندي الموت أهون"

أبعدها عنه بضعة سنتيمترات، كي يتسنى لها تأمل ملامحها الجميلة، التي زادها الحزن جمالا..

"فيه بنوتة زي القمر زيك تقول الكلام الوحش دا؟"

التقت منهما الأعين لدقيقة على الأقل، تبادلا خلالها الكثير من الرسائل الصامتة.. قالت في النهاية بصوت خافت، وكأنها تعجز عن كسر هذه الحالة الفريدة من الهدوء والسلام..

"أنا عايزة أنزل"

ابتعدت عنه ببطء وسارت نحو الباب..

"رايحة فين بس.. ما بلاش تنزلي وانتي في الحالة دي"

"ماتقلقش، مش هاروح بعيد.. ساعة وراجعة لك تاني"

وصفقت من خلفها الباب، تاركة سمير بين أنياب مخاوفه. يتخبط بين حيرته مما يراه بعقله، وما تمليه عليه عواطفه..

وقام مستعيذًا بالله من الشيطان الرجيم ليعد فنجانًا من القهوة، ويبحث عن بعض الكتب القديمة في مكتبته التي ورثها عن أبيه وجدّه، عله يجد فيها ما يعينه على حل هذا الغموض. قلب الكثير من الصفحات الصفراء المهترئة، وأزاح أطنانًا من الغبار دون جدوى.

obeikandi.com

في النهاية وضع قدحه الفارغ جانبًا، وهو يحاول جاهدًا التوصل إلى معنى مناسب لكل هذا..

والكتاب الذي نشرته؟ وكل الناس الذين يعرفونها؟ وكل تاريخها المعلن قبل وبعد الزواج من رجل الأعمال النجم سليم داغر.......؟!

كيف يمكن لشخصية واحدة لها اسم وشكل ثابت، أن تحيا حياتين منفصلتين تمام الانفصال، على مستوى النشأة.. نمط الشخصية.. حتى على مستوى الزمن فإنه يفصل ما بين ليليان فان أورتن التي يعرفها وحده، وليليان فان أورتن التي يعرفها الجميع، مئتا عام وأكثر!

هل هو نوع من الخلط.. مصادفة.. تلاعب؟!

لا يمكن، إن مشهد نسف مقر الجمعية لا يفارق مخيلته، ولن يفعل ولو ظل حيًا لقرن من الزمان. مشهد ليلى وهي تنهض من مقعدها ببطء كأنها آلة تختبر تروسها وجنازيرها للمرة الأولى، وتلقي بخوذتها على امتداد ذراعها، وعلى وجهها ارتسم تعبير مخيف.. تعبير ينم عن السعي للقتل والتدمير!

لم يستطع إغماض جفنيه عنها، وهي تحرك شفتيها بعبارات صامتة جافة، رافعة ذراعيها إلى أعلى. ولم يصدق عندما رأى الشرارات الكهربية تنمو من كل أنحاء جسدها وتحتشد عند كفيها المرفوعتين نحو السماء، مكونة كرة مضيئة مخيفة الشكل، ظلت تنمو ببطء، حتى.....

"واحدة ست عايزة تقابلك يا دكتور.."

انتفض سمير فزعًا، عندما قاطع أفكاره العم طوخي بهذا الشكل المفاجئ..

obeikandl.com

"ماتخبط ع الباب يا عم الحاج، خضيتني!"

"خبطت مرتين يا دكتور، اللي واخد عقلك! أقول لها إيه؟"

"مين دي؟!"

"معرفش، طلبت تقابلك ضروري وقالت لي عايزاك بخصوص ليلى! ليلى مين؟!"

"دخلها واعمل لي كوباية قهوة.. سكر مظبوط"

"يا سلام! ما أنا عارف إن قهوتك مظبوطة!"

"لأ يا شيخ! أمال أنا ليه كل مرة بشربها زيادة؟"

"عشان انت اللي بتعملها لنفسك! مش ناوي تتجوز بقى عشان ترتاح وتريحني منك؟ على الأقل تلاقي حد غيري يعمل لك قهوتك!"

"اطمن يا عم طوخي من الناحية دي، نيرمين خطيبتي مابتدخلش المطبخ غير مرة كل سنة، عشان تشوف التورتاية قبل المعازيم!"

هز طوخي رأسه أسفًا وقارع كفيه وهو يغادر متمتمًا..

"جيل ما يعلم به إلا ربنا!"

ابتسم سمير ساخرًا، وهو يهيئ نفسه لمقابلة تلك الضيفة، حين أتاه صوت يعرفه جيدًا..

"اتأخرت عليك..؟!"

رفع رأسه تجاه الوافدة، وتأملها للحظات قبل أن يهتف مصعوقًا..

"ليلى!! عملتي إيه في نفسك يخرب بيتك، دا أنا ماعرفتكيش!"

"ولا حاجة! لسه شايف إن مفيش تطابق في الشكل؟!"

obeikandi.com

نهض سمير ودار حولها يتأملها متعجبًا..

"انتي أكيد اتجننتي! كل الماكياج دا عشان تثبتي وهم في دماغك؟ فكرتيني بالتحول اللي بييجي لمرضى الفصام في الأفلام العربي النص كم!"

دارت ليلى حول نفسها في ثوبها الحريري مكشوف الكتفين، ضاحكة.. وهي تهز رأسها ذي الشعر الطويل الفاحم المجعد..

"كل دا ماكياج إيه بس! أنا ماعملتش حاجة غير إني اشتريت الفستان دا، بيني وبينك مش مرتاحة فيه عشان عريان زيادة عن اللزوم، بس الموديل حلو! وعديت على الكوافير، رسم لي جفوني ورفّع لي حواجبي شوية، بس.. آه، وجبت من عنده الباروكة دي!"

ثم كفت فجأة عن الدوران، وواجهته عاقدة حاجبيها بشكل أخافه بشدة..

"إيه رأيك كدا؟!"

سعى إليها متوسلاً..

"ليلى.. أنا عارف انتي حاسة بإيه دلوقت، بس انتي كدا هاتعذبي نفسك أكتر.. معلش، اسمعي كلامي. تعالي اقعدي هنا وخدي القرص دا، وانتي ترجعي لطبيعتك"

"انت ليه مش عايز تفهم يا دكتور؟ أنا فعلا رجعت لطبيعتي!"

قال مصدومًا..

"انتي افتكرتي كل حاجة خلاص، وعرفتي إيه اللي حصل؟"

obeikandl.com

"مش بالضرورة.. هايحصل ماتقلقش، كل حاجة بتاخد وقتها، المهم دلوقت إني عرفت أنا مين، فاضل بس أعرف إيه اللي جابني هنا!"

انهار على مقعده قائلاً فيما يشبه التمتمة..

"طب وانتي ناوية على إيه دلوقت؟"

"أكيد يعني مش هاجري ورا الناس في الشارع، أحدف عليهم صواعق ولعنات! هاحتاج بس أجمع بقية الأجزاء، عشان أشوف الصورة النهائية.."

"وحياتك هنا، وبيتك، وجوزك؟"

قالت بسخرية مريرة..

"جوزي! تقصد سليم داغر؟!"

"هو انتي متجوزة حد غيره؟!"

"برضه هاعرف إجابة السؤال دا بالوقت.. أما بالنسبة لسليم بقى، ربنا يتولاه! أكيد مش هايسيبه لوحده.."

وتوجهت دامعة نحو سمير، الذي نهض ليحتويها بين ذراعيه وقد شله الموقف. قالت وهي تجهش بالبكاء..

"أنا ماكنش ليا حد غير سليم وانت، ما اعرفش الناس دول، ولا أعرف أمي اللي ماتت في الحادثة ولا ولادي.. مفيش ولا وش فاكراه، حتى اللي قريت عنهم في الكتاب، لا أعرفهم ولا أنا مصدقة الكتاب أصلا.. دي ماكانتش حياتي من الأول، وما أظنش إني هاوحش حد فيها!"

قال سمير مربتًا عليها في شفقة..

"انتي عندك دلوقت حياتين كل واحدة في اتجاه، ليه تختاري الاتجاه اللي كله شقا ووحدة؟ انتي هنا مع جوزك.. وأنا موجود.. وعندك منار صاحبتك اللي بتحبك، هناك ليكي مين تروحي له؟!"

أفلتت من بين ذراعيه وتوجهت نحو النافذة ولم تجف دموعها..

"ليا قدر مستنيني، مش هاعرف أهرب منه، ولا أضحك عليه.."

"القدر مالوش دخل بقراراتنا الشخصية، ماتروحيش للضياع برجليكي، خليكي هنا معانا، دا أحسن لك.. لا أنا ولا انتي ولا أي حد يعرف إيه اللي حصل لك بالظبط، بس النتيجة إنك هنا دلوقت.. مش يمكن القدر عايزك تبتدي بداية جديدة؟ ليه مافكرتيش فيها بالشكل دا؟"

التفتت نحوه بنظرة ملؤها الأمل، ثم قالت بعد برهة من الصمت..

"تفتكر هاينفع دا؟"

قال مناشدًا..

"إيه المانع بس؟ انتي مش فاكرة أي حاجة من ماضيكي، لا البعيد ولا القريب.. ماتقدريش تأكدي أو تنفي أنهي حياتك فعلا.. ما يمكن هي دي لحظتك الحقيقية.. إنك تقفي في مفترق الطريقين وتختاري، فكري قبل ما تضيعي كل حاجة، صدقيني مش ناس كتيرة اللي جت لها فرصة زي دي"

صمتت لدقائق، وامتدت يدها لتنتزع الجمة من فوق رأسها وقد سكنت روحها أخيرًا. وقررت التغاضي عن ماضيها الذي لا تعلمه.. وكأن لكلمات سمير على روحها تأثيرًا أقوى من السحر..

obeikandl.com

"الظاهر إن معاك حق، لازم أنسى الماضي اللي أنا أصلا ناسياه، وأبعد عنه بكل الشر اللي ممكن يكون ماليه، خصوصًا وإني لسه صغيرة.. مش عارفة إزاي فكرت في فكرة زي دي؟! معقول أنا ساحرة شريرة وكل الهبل دا؟!"

قالتها ليلى ضاحكة كطفلة صغيرة، عرفت أن مدرس الحساب قد اختطفته عصابة وغادرت البلاد. ثم جلست متنهدة بقوة وقد آلمتها وجنتاها من شدة اتساع بسمتها. وابتلع سمير ريقه بصعوبة، وهو يعجز عن إزاحة كل التفاصيل المتعلقة بآخر تواجد له في مقر جمعية الباحثين عن شيء ما عن ذهنه، وقال محاولاً الابتسام..

"شفتي بقى؟!"

هزت رأسها عدة مرات، قبل تختفي البسمة من فوق شفتيها فجأة، وتقول بلهجة بائسة..

"شفت آه! شفت إنك طيب أكتر من اللازم، وكمان بتنسى بسرعة.. على أي حال أنا هاعمل اللي عليا وأحاول أنفّض لكل الأفكار دي، وأعيش طبيعي ولا كأن فيه حاجة.. ادعي لي!"

ونهضت بشكل فجائي عازمة على الرحيل..

"على فين..؟"

قالت وهي تحك رأسها بقوة كأنها تشعر بدوار..

"حاسة إني مش تمام، متهيألي دوش دافي ونوم تمان تسع ساعات ممكن يظبط المسائل.. يالا سلام!"

oneikandu.com

"**هنا** يا عم محمود.."

انعطف السائق العجوز، ليمر عبر البوابة الحديدية الكبيرة، ثم يتجه يسارًا ويمر بصف من السيارات الصغيرة المتراصة. تجاوزها إلى نهاية الممر العريض الممتد بعرض المدخل الرئيس لذلك المبنى الكبير، ثنائي الطوابق، ليوقف السيارة سامحًا لسليم بالنزول.

كان المكان المضاء بالعديد من الكشافات البيضاء المتناثرة على واجهة المبنى، وحول السور المرتفع من جهة البوابة الرئيسية، يشبه في مجمله مبنى إداريًا لشركة ما.. فلم يكن يشي مظهره بأي حال بأنه مخصص للسكن، حتى لو لم تكن هنا أو هناك أي لافتة، لا خارج البوابة ولا على واجهة المبنى الأمامية. لذلك بالنظر إلى النوافذ الزجاجية العريضة المعتمة، وكشك الحراسة الخالي تمامًا إلا من مقعد خشبي فوقه قبعة، بجانب كل تلك التفاصيل الصغيرة، التي تنم عن هجر المكان في هذه الساعة، وبالإضافة لكون الوقت قد تجاوز منتصف الليل بدقائق، ومن جهة أخرى إلى عدد السيارات الواقفة بالخارج تنتظر والتي لم تزل مصابيح بعضها مضاءة بالفعل. نجد أن التباين كان واضحًا جليًا مما يعطينا فكرة عن سبب القشعريرة التي تجتاح بدن العجوز محمود بلا سبب واضح، كلما تطلبت الظروف أن يقل سيده إلى هذا المكان.

"استناك يا بيه؟"

"لأ، سيب لي العربية وخد تاكسي روح انت، يمكن اتأخر هنا شوية، مش عارف.."

كان الأمر بمثابة قرار بالإفراج عن الرجل، الذي لم يكن يكره في حياته إلا شيئين، أحدهما هو القدوم إلى هنا ليلاً! وهو الذي لم يذكر أنه رأى هذا المكان بالنهار قط.. على أي حال فهو لم يكن في موضع يسمح له بالمناقشة.

دون كلمة، أوقف محرك السيارة وأخرج المفتاح مناولاً إياه إلى سليم، ثم استدار عائدًا عبر البوابة سيرًا على قدميه يحلم بأن يجد سيارة أجرة خالية بأقصى سرعة.

وقف سليم للحظات يسوي ثيابه، ويتأكد من ابتعاد محمود بقدر كاف عنه، قبل أن يتحرك مسرعًا في دائرة كبيرة حول المبنى، متجهًا نحو بوابته الخلفية. بثبات وثقة تجاوز البوابة الصغيرة المفتوحة، وعبر الطريق الضيق إلى الجهة المقابلة، قبل أن يدلف إلى تلك البناية الصغيرة المتهالكة، مدثرًا بعتمة الليل. وألقى نظرة سريعة على معصمه الأيسر، وهو يدفع ذلك الباب الخشبي ذي الصرير الخافت.

"دايمًا مواعيدك مثالية يا باشا!"

اتخذ سليم مجلسه حول تلك المائدة الطويلة المتربة، التي التف حولها ثلاثة رجال وامرأة، وقال فاتحًا أزرار سترته، ومحييًا الجلوس بهزة رأس..

"أخبارك إيه دلوقت، لسه تعبانة؟"

هزت رأسها دون أن تجيب، في حين قال أحد الرجال..

"ماتقلقش على لورا يا باشا، دي تربية عفاريت! المهم بس تتلم شوية وماتظهرش تاني أحسن مراتك تشوفها وتبقى مصيبة.. كفاية اللي حصل لغاية دلوقت"

قال سليم وهو يصب لنفسه بعض الشراب، ويجيل بصره بينهم متسائلاً، فدفعت لورا له بكأسها بينما رفض الآخرون..

"ماتقلقش، زمانها اتعلمت الدرس كويس.."

وأتم عبارته رانيًا إليها بطرف عينه..

".. وعرفت هي بتلعب مع مين!"

زفرت لورا بحنق وقالت بينما تجرع شرابها دفعة واحدة..

"أنا أعلم جيدًا مع من أتعامل، **ok**؟! وأنت لن تتهمني بالإهمال في التعامل معها، بعد كل ما بذلنا من جهد في سبيل استعادتها.. **But you know that, Lily like a daughter of me**.. وأنا لا أحب أن تتعامل معي ابنتي بهذه الطريقة!"

رمقها سليم، لا يصدق إن كانت جادة أم تمزح، قبل أن يطلق ضحكة ساخرة وهو يقترب منها هامسًا..

"مش عايزك تاخدي كل حاجة قفش كدا! وبعدين هو أنا كنت بصرف الملايين دي كلها، واستنى كل الوقت دا.. عشان في الآخر تجيبي لي **baby**؟! انتي مجنونة ولا إيه يا لورا! لو على الأطفال يا روحي فيه طرق تانية خالص أسهل من كدا بكتير!"

لوت شفتيها معبرة عن سخف مقولته، بينما قال أحد الجلوس في اهتمام وهو يداعب شعره الطويل..

"سيبكم بقى من التهريج، قل لنا يا باشا.. إيه الأخبار عندك دلوقت؟"

فهم سليم أن محدثه يشير إلى ليلى، فقال..

"لحد دلوقت مفيش جديد، من ساعة المحاولة اللي عملتها الهانم.." – وأشار ناحية لورا – "..عشان نستخلص من عقلها المعلومة.. مش عايز أقرب منها دلوقت أحسن التجربة كلها تبوظ ونبدأ من الأول تاني"

قال أحدهم في توتر، وهو يفرط في تحريك أصابع يديه ويشبكهم معًا..

"انت فعلا خلصت كل الشغل اللي وراك، وحليت كل الألغاز.. سيبك بقى من الوقت والفلوس اللي صرفتها، المهم إنك نجحت في اللي مافيش حد على مر التاريخ قدر يحققه. وخلاص ما بقاش فاضل غير خطوة واحدة بس، آخر تكّة، صفحة من ألف صفحة! عندك استعداد تضيع وقت تاني أكتر من كدا؟ لاحظ إنها مش زينا.. وماعندهاش الاستثناء اللي انت إديته لنا.. يعني يكون أحسن لو خلصنا الموضوع في السريع و..."

أخرسته نظرة نارية من سليم الذي قال بصرامة شديدة..

"بقول لك إيه! ماتنساش بس إنك بتتكلم عن مراتي، اللي عملت كل اللي أنا عملته دا عشان ترجع لي. الحاجة الوحيدة اللي مخلياني مكمل بس، خوفي عليها لا تتئذي أو تتاخد مني تاني.."

قاطعه أحد الرجال محاولاً تهدئة الموقف، بينما مد الأول يده نحو زجاجة الشراب عابسًا..

"باشا! لاحظ إن مفيش حد فينا يعرف إيه اللي هايحصل لو انت قدرت توصل للسر.. يعني كلنا خايفين على ليليان زيك بالظبط لأن هي اللي في إيدها تكمل من بعد اللي انت عملته، ومفيش حد هايقبل إنها تتعرض لأي خطر.. احنا اشتغلنا سوا فترة طويلة قوي، ووصلنا للي احنا فيه دلوقت، وكنا عارفين إن هاتيجي علينا لحظة نقف عندها لما اختصاصنا ينتهي، ولو انت مصر تعتبر موضوع الطلسم الأخير دا من ضمن (المسائل العائلية) بالنسبة لك، خلاص! ورينا همتك. احنا حاولنا مرتين، وآديك شفت المرة التانية رغم فشلها، بس ماتنكرش إنها حركت ليليان.. هاتفتكر واحدة واحدة"

نجحت محاولته في تهدئة الأجواء، والانعطاف بالحوار نحو نقطة أخرى، مما جعل ذو الشعر الطويل يقول باهتمام..

"عرفت حاجة عن موضوع كسر المراقبة اللي كانت بتعمله كل شوية دا؟"

"أمال فاكرني نايم على وداني؟! كانت بتروح لدكتور نفساني وماكنتش عايزاني أعرف.. دا نوع من الحماية بدائي شوية كانت بتعرف تستخدمه زمان، شكله بقى يطلع لا إراديًا كل ما تكون رايحة له. عشان كدا خليتهم يبعتوا له إعلان الجمعية، لأنها ماكانتش هاتطمن غير لو هو حضر معاها الجلسات"

وهز الرجل رأسه متفهمًان فتساءل سليم..

"طب أنا عرفت إنها بتشوف كوابيس لها علاقة بماضيها القديم. شافت تفاصيل وناس وحاجات كدا لها علاقة بليليان الأصلية.. طبعا هي مش فاكرة ولا فاهمة الكلام دا معناه إيه، بس يا ترى فيه أي احتمال تفتكر أي تفاصيل لها علاقة بماضيها هي خلال الخمسة وعشرين سنة اللي فاتوا؟"

قالت لورا وهي تقطب شاعرة بالملل..

"للمرة الألف، لا أعتقد. أعلم أن أوان هذا الكلام قد فات ولكنني كنت ومازلت أميل إلى استخدام الأسلوب الأبسط، أن تتولى تربيتها بشكل طبيعي حتى تكبر، ثم...."

قاطعها سليم بعصبية..

"آه وبعدين أقول لها أنا كنت أبوكي اللي رباكي السنين اللي فاتت، إيه رأيك تتجوزيني بقى ما دام كبرتي واحلويتي كدا؟! انتي اتجننتي يا لورا؟.. أنا عارف إن فرق السن بين وبينها مش باين إنه كبير، بس عمرها ما كانت هاترضى ولاهاتفكر أصلاً تتجوزني لو كنت ربيتها بنفسي.. هو الحل الوحيد اللي حصل، إننا نسيبها تكبر، وبعدين نمسح لها الذاكرة خالص، فتبقى مستعدة تقبل أي معلومة! أقول لها أنا جوزك بقى، أنا خالتك!! ما دام مالهاش غيري كان لازم تصدقني.. الخوف بس لا تفتكر أي حاجة لها علاقة بالفترة اللي قبل مسح الذاكرة، كل حاجة تبوظ واحنا مش ناقصين!"

"For the last time, this can't be happening.. أنت لم تمح ذاكرتها باستخدام السحر، كما انتويت، والسحر يمكن إبطاله.. لكن هذا الإشعاع قد قام بمحو كل شيء مكتسب، ولم يُبق إلا على

obeikandl.com

ذاكرتها الوراثية، والجزء المتعلق بذاكرة الخلايا.. أتمنى أن يكون هذا كافيًا لتطمئن!"

قال ببرود وهو ينهض..

"وأنا كمان بتمنى!"

نهض الجميع خلفه وقد فهموا أن الاجتماع قد انتهى. وقال ذو الشعر الطويل وهو يلتقط معطفه..

"بالنسبة للكوابيس اللي هي بتشوفها، مفيش منها قلق.. يمكن دي الطريقة اللي هاتخليها ترجع لك.. هانستنى وهانشوف"

أشار الرجل المتوتر دومًا إلى سليم وقال..

"أنا عايزك يا باشا في كلمة قبل ما تمشي.."

انتحى الرجلان الآخران ركنًا، وتبادلا حديثًا هامسًا، بينما حيت لورا الجميع، وانصرفت من باب غير الذي دخل سليم من خلاله..

"بص! هي مشكلة كدا بس ماتقلقش حليناها.."

عقد سليم ذراعيه وقال بصبر..

"ايه اللي حصل؟"

"واحد من الصحفيين اللي بيحبوا يحشروا مناخيرهم في أي حوار، حاول زي اللي سبقوه يعمل عنك وعن نشأتك تقرير وكدا.. انت عارف النظام دا! تقريبًا كان عايز ينشر سيرتك الذاتية في الجرنال بتاعهم، بس أنا اتعاملت معاه يعني"

"إمتى وفين الكلام دا، ونشر ولا لأ؟"

"في نيويورك من يومين، أنا عرفت بعد ما نشر أول حلقة فعلا، بس أنا اهتميت بالموضوع بنفسي، واتأكدت إن مفيش ولا واحد فاكر كلمة من اللي قراها، ولا حد سأل سؤال واحد حوالين اللي اتكتب!"

قابله سليم بنظرات ثابتة تقدر على الإيذاء، فقال..

"ما انت عارف إنها مش أول مرة، وشفت بنفسك أنا بتصرف إزاي في المواقف دي.. ولا إيه؟"

"أنا عارف إنك قدها عشان أنا اللي علمتك بنفسي.. وافتكر، الدم دايمًا هو آخر حل تفكر فيه، يعني في أضيق الحدود الممكنة"

"فيه حاجة كمان، قبل ما أنسى.."

واتجه إلى المائدة الكبيرة، كي يفتح حقيبته الجلدية ويتناول منها مغلفًا كبيرًا يضم عدة أوراق..

"اللي انت طلبته أهو.. من دلوقت كل ممتلكاتك، شركات وأصول ثابتة فلوس سايلة، هنا في مصر وفي العالم كله، بقت رسمي ملك للسيدة ليليان فان أورتن، بعقود سليمة زي الجنيه الدهب"

تناول سليم المغلف من الرجل دون كلمة، ولم ينصرف وكأنه يشعر بأن الحديث لم ينته بعد..

"متهيألي يكون أحسن لو قلت لي سبب الطلب دا، أنا مارضيتش اسألك قبل ما أنفذ أحسن تفهمني غلط"

"الأهم من العقود دي هو التوكيل اللي عملته لي ليليان، عشان أعرف أمشّي كل حاجة لغاية ما تيجي اللحظة المناسبة وافاجئها.. بخصوص السبب، معلش.. أفتكر لسه ما جاش وقته"

وربت كتف الرجل مودعًا وشاكرًا إياه، قبل أن يترك الجميع ويخرج من حيث دخل. كانت عقارب الساعة تشير إلى الواحدة والنصف، عند اللحظة التي أدار فيها محرك سيارته الكبيرة، ودار بها متجهًا نحو البوابة التي يبدو أنها لا تغلق على الإطلاق، في سبيله للعودة إلى الدار.

كان الطريق إلى بيته قصيرًا لذا فقد فضل ألا يقود بسرعة كبيرة كعادته، خاصة وأنه لم يكن يتعجل العودة. وجد الهواء رطبًا منديً ومغلفًا بلمسة محببة من البرودة، ففتح النافذة المقابلة له على الجانب البعيد، جزئيًا، ليسمح له بالدخول. ثم أدار المذياع على إذاعة ما لم يهتم بما تبثه.. فقط كان يريد أن يستمتع بمؤانسة المذياع، التي لا يدركها كل الناس. شعور غريب ينتابه من وقت لآخر، أن يفعل ذلك دون هدف وكأن صوت الشوشرة الموجية الذي يصاحب الأحاديث أو الأغنيات، هو الهدف في حد ذاته.

للحظة وبلا سبب شعر أن الحياة صارت أجمل، وتمنى لو أن ليلى كانت معه هنا والآن، قبل أن يضيع ذلك التأثير السحري المؤقت للأشياء.. ويذوب تحت حرارة شمس النهار التي لا تستطيع جمع الأحرف (ش.ا.ع.ر.ي.ة) في كلمة واحدة.. ولم تكد صورة ليلى تقتحم ذهنه حتى شعر بأنه يرغب في رؤيتها حالاً مما جعل قدمه تزيد من ضغطها على دواسة

الوقود بشكل تلقائي.. وانطلق في شوارع الإسكندرية ينعم بأقصى حد من المتعة والسعادة، تقدر أعصابه وخلاياه على النقل والتعامل معه..

*****

كانت في هذه اللحظة تبكي بالفعل.. وهي التي ما بكت من قبل قط.. تبكي رعبًا، وقهرًا، وألمًا.

لكنها لم تبك ندمًا..

وعلى الأرض كادت أن تفرغ محتويات أمعائها من هول الموقف.. لكنها منعت نفسها بكثير من العسر لكي لا تثير غضب سيدها..

"لقد حان الوقت.."

التفتت إلى جوارها لترى اليد الممسكة بالكأس الكريستالية المفعمة بدمائها.. كانت تقترب منها..

من شفتيها......!

لم تحاول إبداء أي اعتراض، عندما لامست حافة الكأس شفتيها بالفعل.. وبدأت اليد المعروقة في إمالة الكأس نحوها..

"رشفة واحدة وينتهي الأمر.. فلأحاول أن..... "

شعرت بأن الجرعة بأكملها قد سُكبت سكبًا بداخل حلقها، مما جعلها تشرق وتدخل في نوبة عنيفة من السعال المشوب باشمئزاز. وتصاعدت أحماضها المعوية، مهددة بالمساهمة في زيادة الفوضى الضاربة في المكان.

تخلت اليد المخلبية عن شعرها، وتركتها تسقط أرضًا بين الوحل والدماء، لتتمكن من تلقي الصدمة على مهل.. وظلت تلملم أطراف ثوبها

obeikandi.com

الذي استحال خرقة بالية، وتحاول الاعتدال جالسة، حتى كفت عن السعال.. وبدأت تلاحظ أن كل شيء قد هدأ من حولها أخيرًا.

توقفت الرياح الثائرة.. وكفت الأمطار الغزيرة عن الانهمار.. وهدأت الرمال، فلم تعد تضربها بقسوة، بل بدأت في الاستقرار والاستكانة.. حتى أن الدماء لم تعد تتفجر من تحت أقدامها. ولاحظت أن الأرض مهتمة بامتصاص ذلك المزيج المخيف، من الوحل المشرب بحمرة وردية بأقصى سرعة..

وببطء لاحظت أن تغيرًا غريبًا يطرأ عليها.. كان هناك ذلك الضغط الزائد على أذنيها، والذي ظل يتزايد بشكل تصاعدي حتى أحست وكأن روحها تنتزع انتزاعًا عبر حلقها الذي جف كالحطب.. وثقل كالجبل يجثم على صدرها، مهددًا بتحويل أضلعها إلى فتات.. واستمر الموقف لنصف دقيقة تقريبًا حتى بلغت مداها وأيقنت من الهلاك.

ورغمًا عنها راحت الدموع تتفجر من مقلتيها كالأنهار بفعل الضغط الشديد، قبل أن ينتهي الأمر بسلام في ظرف لحظة، وكأن شيئًا لم يكن..

وببطء شديد حاولت رفع رأسها لأعلى، لم تلاحظ وجود أي ممن كانوا يلتفون حولها منذ لحظات.. نهضت على قدميها بساقين كالعجين وتلفتت حولها في كل اتجاه، بالفعل كان الجمع الرهيب من حولها قد انفض أخيرًا..

ما سر ذلك التغير الذي طرأ عليها؟ تحس بأنها قد اختلفت تمامًا..

إنها تتذكر كل شيء..

ويبدو أن اللحظة المنتظرة قد حانت أخيرًا، كافة التفاصيل صارت موجودة وحاضرة في ذهنها كأوضح ما يكون.. لقد اكتشفت أنها صارت تعرف أخيرًا من هي، وما ينتظرها.

كان هذا رائعًا، و..

وتلفتت حولها من جديد.. لقد صارت وحيدة.. وحيدة جدًا..

في هذا المكان الموحش المظلم.. وليست لديها أدنى فكرة عن كيفية العودة منه..

ما العمل..؟!

لاحظت أن لون السماء الأسود قد صار أزرق، وظل يخف شيئًا فشيئًا حتى انتهي به الحال إلى الأصفر الذهبي كلون الشمس في منتصف النهار، وكأن هناك من أدار عقارب الساعة بسرعة كبيرة جدًا.. ومن حولها وجدت الأرض الجافة قد استحالت خشبًا لامعًا، تكسوه سجادة كبيرة جدًا تشبه تلك الموجودة بغرفة نومها..

إنها بالفعل بداخل غرفة نومها!!

ما هذا الجنون؟

أليس هذا كابوسًا.. والغرض منه أن تخاف؟!

لم تسمع من قبل بكوابيس تعيد أبطالها إلى أماكنهم الأصلية بعد انتهاء العرض، وربما خصصت لهم عدة سيارات تمر بكل المحافظات كذلك!

لا أحد يعود من الكابوس إلا عند الاستيقاظ، إنها أبسط قاعدة متعارف عليها في هذا الموضوع..

ولكن يبدو أنها استيقظت بالفعل وهذا هو الأكثر جنونًا من كل الكوابيس.

فجأة اكتشفت أنها واقفة في منتصف حجرة نومها، بقميصها الأبيض الذي نامت به.. ومن خلف الستائر المزاحة، كانت الشمس تبدو في قمة تألقها.. وقد أشارت عقارب الساعة إلى الواحدة ظهرًا..

هل قامت من مرقدها بينما هي لم تزل نائمة، وسارت حتى توقفت هنا، في نفس اللحظة التي انتهي فيها الكابوس المخيف..؟!

جائز، لكن هذا لا يفسر آثار البلل العالقة بباطن قدميها الدقيقتين، والتي تولّت السجادة الفاخرة مهمة امتصاصها شيئًا فشيئًا.

لكن هذا لم يعد يهم الآن، أيًا كان ما حدث، فالنتيجة أنها الآن أصبحت تتذكر..

وقررت أن الوقت صار أضيق من أن تضيعه في تحليلات غبية لا طائل من ورائها. ألقت نظرة سريعة على المرآة الكبيرة بالمكان. لاحظت أن بجانب شفتيها الرقيقتين وحول جفنيها السفليين تواجدت خطوط لم تكن موجودة من قبل.. وارتعبت من نظرة عينيها بالمرآة.

لكنها لم تتوقف كثيرًا.. هناك الكثير مما ينبغي عمله..

والأهم من ذلك.. هناك من يحاول إفساد هذا العمل، ولا بد من إيقافه بأي ثمن..

obeikandi.com

وألقت نظرة أخرى سريعة على صورتها بالمرآة، لكنها لم ترتعب هذه المرة بالرغم من الطيف الذي بدا لها بين نقاط الضوء المتناثر بريقها على السطح الفضي اللامع..

كان ذات الكيان الشيطاني الذي طالما زارها في كوابيسها، قبل أن تتذكر أنها عرفته وتعاملت معه منذ زمن بعيد بعيد..

وللحظات ظلت متسمِّرة في وقفتها أمام الطيف، قبل أن تهز رأسها إيجابًا، وكأنها تلقت منه رسالة صامتة..

وفي النهاية التفتت نحو فراشها العريض، حيث يرقد زوجها غافيًا.. وابتسمت بسخرية قبل أن تتجه نحوه عاقدة العزم على الانتهاء من كل الأمور العالقة خلال ساعات بأقصى تقدير.

obeikandl.com

obeikandl.com

البَاب الثَّالِث

الكَشْف

obeikandl.com

obeikandl.com

بكى كثيرًا جدًا كالأطفال.

كان في حالة رهيبة من الذهول وعدم التصديق، ليس فقط لأنه عشقها إلى حد الجنون، ولا لأنه تمناها كما لم يتمن أحدًا في الحياة.

ولكن لأنه لم يتصور أن تأتي عليه اللحظة التي يشهد فيها مصرعها، وبهذه الطريقة المهينة المفجعة. كان يتخيلها معنى مجردًا.. رمزًا يعلو فوق قوانين الحياة والموت، وما يُلم ببقية العباد من ظروف تقليدية. ولدقائق بدت كأنها قرون، ظل يركض ويركض بين الثلوج متجهًا نحو كوخهما الثلجي، وكأن الجحيم يطارده. كان يبكي ويركض ويصرخ هاتفًا باسمها وكأن له ألف رئة!

وبمنتهي اللهفة، وكأنه ذاهب للقائها شخصيًا توجه نحو الكوخ، وهو يلقي بعيدًا بالخنجر الذي لا يدري كيف تمكن من مباغتة الحارس وصرعه باستخدامه، ولا كيف فر من بينهم دون أن يلحظ أحدهم أي شيء.

بدا في تحركه الآلي وكأن لديه مهمة محددة لا تحتمل التأجيل للحظة واحدة.. لكنه لم يكن يدري من أمرها شيئًا.

كان يتصرف وكأن لكل طرف من أطرافه، ولكل عضو في جسده إرادة خاصة، وفكر مستقل.. ويبدو أنهم جميعًا قد اتفقوا على أمر ما دون أن يحفل أحدهم بإبلاغه. وفي لحظة واحدة كان قد استطاع كسر القفل الحديدي الموضوع فوق صندوق معشوقته الفقيدة، و بلهفته الجنونية قام بإخراج كل ما به من كتب ومخطوطات باحثًا عن ورقة بعينها، كانت الفتاة قد أمرته بالبحث عنها واستخدامها إن نال منها مكروه أو ماتت..

وكان يستبعد احتمال اضطراره لاستخدام تلك الورقة لأقصى حد، لكنه الآن كان على أتم الاستعداد لحرق أوروبا بأسرها إن لم يستطع إيجاد ورقته المنشودة.

ها هي، لم تخذله الفتاة حتى بعد موتها..

وبحرقة شديدة ظلت دموعه تنهمر بلا قوة لديه كي يمنعها، لكنه رغم ذلك لم يتوقف لحظة واحدة عن العمل. كان يجمع كل شيء بسرعة.. الكتب.. الأوراق المتناثرة.. ملابسها.. أدوات زينتها.. وكل ما يمت لها بصلة في قلب الكوخ.. ويضعهم في قلب دائرة واسعة رسمها فوق جليد الأرضية بإصبعه، ووضع في داخل إطارها بعضًا من رماد كانت تركته له في كيس قماشي مغلق.. وألقى بالكيس ذاته في قلب الدائرة، ثم وقف بدوره في منتصفها، وأمسك بالورقة في يده وبدأ التلاوة بصوت عال.

قطع عليه عمله صوت هدير غريب، فأجفل للحظة، ولم يستطع تبين حقيقة الصوت. أهو صوت حوافر جياد تقترب منه مسرعة، أم أنها عاصفة جليدية توشك على الهبوب؟

تأمل الجليد من خلال فرجة الكوخ للحظة، ومن بين دموعه الغزيرة خطر له أن يذهب ليلقي على جثمانها نظرة أخيرة.. لكنه ما لبث أن عاد له صوابه، فنفض رأسه بقوة وقال لنفسه بصوت متهدج..

"لا تخف، لقد وعدَت بأننا سوف نراها ثانية، وبأسرع مما نتخيل.. لا تخف، إنه وعد!"

وألقى نظرة أخرى مفعمة بالكراهية نحو البلدة، قبل أن يوجه بصره نحو الورقة، ويواصل التلاوة ببطء ثقيل غير مبال بصوت الهدير المخيف، الذي راح يرتفع شيئًا فشيئًا..

وعندما ارتفعت العاصفة لأقصى مداها قبل أن تهبط لتحيل البلدة بكل من فيها إلى غبار، كانت هناك في قلب الكوخ عاصفة أخرى، قد تكون أقل مساحة من التي تدوّي بالخارج، لكنها لا تقل عنها عنفًا، بل ربما كانت أعنف!

فحول الدائرة اجتمعت كل شياطين الأرض، وظلوا يدورون بسرعة جهنمية لثوان قليلة، حتى وكأن النيران قد اشتعلت في حواف الدائرة من شدة تسارعهم، ثوان بدت كالقرون بالنسبة للفتى. ولكن ما إن انتهت بجنونها، حتى وجد الفتى أنه قد عاد وحيدًا مع كتبه وأدواته وما جَمَع.

ونظر حوله ليتأكد من أنه لم يعد هناك.. لا في الكوخ ولا في البلدة، ولا في القارة بأسرها!

*****

حين رمق الفتى الوجود من حوله متأملاً، بدا وكأنه قد انتقل إلى عالم آخر يختلف تمامًا عن العالم الذي أتى منه.. فبعد أن اعتادت عيناه مشاهد الجليد، ورقع الغابات لا متناهية المساحة.. وجد نفسه وسط مساحة شاسعة منبسطة من الرمال، لا يحدها أي شيء من كل الجهات.

وبخوف شديد، نظر في الورقة التي بدأت تشتعل بين أصابعه، ليتأكد من نقطة الوصول التي اختارها كنهاية لرحلته. فوجد أنه اختار نقطة تقع في ذلك البلد الحار من شمال أفريقيا والذي يطلقون عليه مصر..

مصر....؟!!

يا للكارثة، يبدو أنه في سبيله للموت جوعًا وظمأً.. لم يكن يعرف أن مصر عبارة عن حفنة من الرمال، ولو عرف لفضل انتظار الموت ببنادق الجنود على الحياة هنا..!

من بين جفنيه شبه المطبقين ظل يدور برأسه في كل اتجاه، بحثًا عن أي أثر للحياة.. لم يحاول إزاحة أنهار العرق المتصببة من جبينه، فلم يكن به من العزم ما يسمح له بتحريك إصبعه. وفهم أنه سوف يعاني كثيرًا قبل أن تتاح له الفرصة للحياة من جديد، خاصة وأن الورقة قد احترقت أثناء الرحلة، ولم يكن هناك وقت لصنع نسخة أخرى منها.

حاول أن يحرك قدميه في أي اتجاه، فاكتشف أنه تقريبًا قد شل. يبدو أنه أحد أعراض السفر بواسطة هذه الطريقة بالغة الخطورة. وكان يعرف أن هذا الشلل لن يدوم لأكثر من دقائق.. ولكن مع توالي الصدمات فوق رأسه على هذا النحو المفاجئ العسير، بدءًا بهجوم جنود الملك فكتور.. ومقتل حبيبته.. ومرورًا باختفائه من أوروبا على هذا النحو المدهش بالنسبة له.. ثم ذلك اللون الأصفر المقيت الذي يغطي عينيه مع كل حركة لرأسه في أي اتجاه، والذي أوشك على إصابته بالعمى.. فضلاً عن الظمأ والجفاف

اللذين أخذا يغزوان خلاياه بلا رفق وبسرعة كبيرة للغاية، وتسببا في تيبس حلقه وشفتيه، حتى صارتا مغطاتين بالقشور البيضاء كالأسماك.

مع كل هذا، لم يعد هناك مفر من هذا الدوار الذي انتابه للحظات، قبل أن يسقط منكفئًا على وجه بين كتبه ورمال الصحراء..

*****

كان يعلم أنه لم يستفق بعد من غفوته، كأنه كان واعيًا بلا وعي!

ومن بين كتل الضباب من حوله، بدأ لسبب ما في استعادة بعض تفاصيل التاريخ الذي ربطه بهذه الفتاة. ومرّ بلحظة أن رآها أول مرة، وتجاوزها إلى لحظة بداية القصة التي حضر أول مشاهدها بنفسه.. ثم تجاوز كل ذلك وتجاوز بدايته هو شخصيًا في الحياة إلى البداية الحقيقية للرواية..

تلك التي لم يشهدها حتمًا.. لكنها ما حدث، وما رواه كل من كان يكبره عمرًا بأكثر من عقد من الزمن، والتي لم تتسبب فيها ليليان.. بل هي البداية التي تسببت في وجود ليليان أصلا.

*****

كانت بلدة هادئة تقع في جزيرة ساردينيا، لم تر خلال تاريخها الطويل ساحرات من هذا النوع، ولم تسمع من قبل عن طقوس حرق الساحرات أو دفنهن أحياء فضلاً عن رأي العين. لذا كانت صدمة الجميع لما آل إليه حال الفاتنة الفقيرة سوزانا زوجة المزارع البسيط روبرتو سيرخيو، كبيرة بما يتناسب مع الموقف وأكثر.

قيل إن سيرخيو تزوج من قبل ولم ينجب من زوجته الأولى، فمن أين أتت سوزانا بحملها إذن، وبعد أكثر من تسعة أعوام من الزواج..؟

دعك من كونها فائقة الحسن، برغم زحفها المتواصل نحو العقد الرابع، وأن نصف رجال البلدة يحلمون بها، والنصف الآخر يسعى إليها. لابد أن الرجل الثري الأيرلندي الذي سكن البلدة منذ أشهر قليلة هو السبب..

السادة المتأنقون، الذين يتعاملون مع السكان المحليين وكأنهم عبيد أو خدم لديهم، فيدهسون كل ما يعترض طريقهم بلا مبالاة إلا برغباتهم الخاصة، أنت تعرفهم بالتأكيد. كان السيد جوناثان ريتشارد فان أورتن، أو كما أطلق عليه أهل البلدة (الدون) يسكن قصرًا كبيرًا في أطراف البلدة. رجل حاد الملامح على الرغم من وسامته، صارم يتحدث الإيطالية بإتقان، ولا يبالي بتقاليد البلدة المحافظة.. كان يثير مرآه خوف الأطفال، ويفجر بكاء الرضّع بلا سبب منطقي، هكذا لم تقبل امرأة بالعمل في قصره، لأن معظم النساء في القرية كن يرضعن صغارًا، وحدها سوزانا التي لم ترزق بأطفال قبلت.

هل ضاجعها (دون جوناثان) ذات ليلة، فنالت منه ما لم تنل من المسكين زوجها؟

كثر الحديث بالطبع وانتشرت الأقاويل، ثم استيقظ الجميع ذات نهار ليكتشفوا رحيل الدون، وكأنه قد أتم مهمته، فلم يعد لوجوده معنى.

هم يذكرون بدقة متى بدأ ذلك التغيّر يطرأ على شخصية المرأة الريفية البسيطة المحبة، ويذكرون متى بدأت تلك النظرة المخيفة التي تقذف

بالشرر تسكن مقلتيها الناعستين.. ومتى بدأت دجاجات جارتها في الوفاة الواحدة تلو الأخرى إثر مرورها من أمام باب بيتهم.. ومتى بدأ الأطفال الرضع ينتحبون ويصرخون حتى الازرقاق إذا ما وقفت أمهاتهم للحظة مع سوزانا..

وبدأ حديث (المرأة التي حملت من الشيطان) ينتشر، وتهامسوا حول الوباء الذي ينتظر ليفتك بكل أهل الأرض، والذي تسببت به تلك المرأة المجرمة، حتى أن الكيل قد فاض بالمسكين زوجها الذي لم يحتمل كل هذا فأنهى حياته بيده.

وتقرر إعدام سوزانا وقتل طفلها، لكنهم إذ اجتمعوا وذهبوا إليها لتنفيذ ما اتفقوا عليه، وجدوها قد ماتت وهي تضع مولودتها. كانت الطفلة طبيعية تمامًا، وكانت بالفعل رائعة. تتمتع بعينين سوداوتين جميلتين، تفاءل بهما الخلق، وقرروا تبني الطفلة المسكينة التي لم تجن شيئًا.

وأطلقوا عليها اسم ليليان.. ليليان فان أورتن.

*****

نشأت ليليان بين أطفال القرية الفقراء، فلم تستشعر افتقادًا لأم ولا أب، لأن كل أب كان أباها وكل أم كانت أمها.. ومن بين الأطفال كان هو..

ماريو فيبوناتشي.

لعبا كثيرًا وتشاجرا كثيرًا، وتخطيا سويًا مرحلة الطفولة إلى فترة المراهقة الأولى. أحبها كثيرًا مثلما أحبها الجميع وأكثر، لكنها كانت لا تلتفت إليه ولا إلى غيره من شباب القرية.. فتخيل أنها تنتظر فرصة تحمل لها زوجًا من

فتيان المدن البعيدة الأثرياء. كانا في منتصف العقد الثاني تقريبًا عندما صارحها للمرة الأولى بأحلامه وتخيلاته..

" لا يا ماريو، ليس هذا هو السبب"

"ما السبب إذن في عدم اهتمامك بي.. ألا أروق لك؟!"

"هل لو أخبرتك بالسبب، تحتفظ به سرًا؟"

قال الفتى متوترًا..

"بالتأكيد..!"

مالت على أذنه هامسة في خطورة..

"إنني متزوجة بالفعل، لهذا لا ينبغي لي الارتباط بك أو بغيرك...!"

وتركته وهي تبتسم، فأجزم محنقًا بأن هذا المزاح الثقيل كفيل بتقريب نهايتها..

*****

فتح عينيه مستعدًا لضربة قاتلة من ضربات شمس الظهيرة، لكنه مندهشًا ألفى نفسه ممددًا على فراش خشن في مستوى الأرض، وعلى مسافة مترين منه كانت هناك شمعة كبيرة مشتعلة، ومغروسة في الرمال، وقد اعتلته خيمة ممزقة. ومن حوله وجد كل كتبه وأدواته بالإضافة لقربة صغيرة مملوءة بالماء.

نهض ببطء، ألقى بنظرة وجلة إلى خارج الخيمة فتبين أن الوقت ليلاً، نهض بصعوبة وسار إلى الخارج، لتلتقيه نسائم الليل الباردات بالتحية.

لم يكن هناك أي مخلوق بالجوار، ترى من قام بهذا العمل، وأتى به إلى هنا؟

وما المدة التي قضاها نائمًا، وهل سيظل هنا للأبد أم ماذا..

لم يكن يشعر بالجوع، ولا بالخوف من الوحدة في قلب الصحراء، ولا حتى بالقلق من شمس النهار الملتهبة، في وجود هذه الخيمة. لكنه كان قلقًا من نفاد المياه بالقربة الصغيرة، ومن جوعه إن طال به الأمد هنا وحيدًا. لكن القلق لم يكن عظيمًا، لاعتقاده بأن من وضعه هنا قادم إليه في الصباح لا محالة.

لم تكن به حاجة للعودة إلى النوم، وكانت الشمعة كبيرة بما يكفي، فقرر أن يقلب قليلاً في الكتب التي حملها معه ليقرر بأيها يبدأ. فقد حمل معه فيما حمل قرارًا بأن يعرف ما عرفته ليليان وما قرأته وما خطت بيمينها. كان على يقين من أنه إن أراد استعادتها، فإن هذا الطريق هو الأقرب.. سوف يتعلم، وسوف يتصل بأولئك المخلوقات، وسوف يسألهم عنها.

لم يكن قرارًا فقط، بل كان هدفًا، ولقد بدأ في السعي إليه على الفور..

*****

أتى النهار ولم يبرح مكانه أمام ذلك الكتاب الكبير الثقيل، كان مفتونًا بكل هذا العلم، وقد صارت المعرفة هدفًا آخر في حد ذاته بالنسبة له. وتصور أنه لو تُرك وحده لمدة ألف عام لظل منكبًا على الأوراق، ينهل منها بلا كلل.

وارتفعت الشمس إلى كبد السماء، ولم يأت أحد حتى اللحظة. لم يقلق، بل على العكس تمامًا.. كان سعيدًا بخلوته فرحًا بما عرف.

وقام إلى الخارج لإجراء تجربة صغيرة قرأ عنها، تنفعه في البحث عن الغذاء. كان الوقت لم يزل نهارًا، لكنه لم يجد ضيرًا من إشعال النار من أجل التجربة، فلم تكن الطريقة تحتم أن يتم التنفيذ ليلاً. وكما تعّلم، أشعل النار بلا حاجة للبحث عن الحطب، فلم يندهش من قدرته على إتيان ذلك. وكأن الأمر لا يعدو مجرد مسألة حسابية بسيطة قام بإجرائها مستندًا إلى قواعد ثابتة، فلا عجب من أن تكون النتيجة كما كان يبغي!

وبحسب ما قرأ، راح يتلو بعض العبارات حول النار.. ثم دخل لينزوي بالداخل حيث الظل، في انتظار ما قد تسفر عنه التجربة. وظل يقرأ حتى مغرب الشمس، عندما قاطع تركيزه للمرة الأولى صوت دخيل.

خرج متوجسًا ليتبين الأمر، فهاله ما رأى. كان هناك حول النار خروف أسود صغير، بدا من امتداد آثار أقدامه في الصحراء، ومن لهاثه المتواصل أنه قد قطع مسافة لا بأس بها قبل أن يستقر هنا!

وبفرحة لا تضاهيها فرحة جرى الفتى إلى قلب الخيمة، ووضع للخروف بعض الماء في إناء خزفي مترب كان هناك.. وتركه يلعب قليلاً حول الخيمة قبل أن يحين موعد العشاء.

*****

عام كامل مر عليه منذ انتقل إلى هنا...!

عام لم يقابل خلاله بشريًا واحدًا، لكنه لم يكن في حاجة إلى البشر بعد الآن. عام كامل لم يفارق هذه الخيمة، ولم يحاول أن يسعى نحو العمران، حيث الناس تحيا، وحيث الماء الحقيقي الذي يجري أو يخرج من باطن الأرض، لا ذلك الذي يتولد في قربته الصغيرة تلقائيًا، كلما قل منسوبه عاد كما كان!

دورة شمسية كاملة، قضاها في قراءة ما معه من كتب، ومحاولة جمع أكبر قدر من العلم. ولقد تعلم الكثير حقًا، ليس فقط فيما يخص مواجهته لمشكلات المعيشة، بل إن الأمر تطور معه إلى بعد آخر، أشمل وأكثر اتساعًا.

لقد تعلم العربية كأهلها، دون أن ينطق منها كلمة، وتعلم كيف يصنع ثيابه وكيف يضيء خيمته، وكيف يعالج نفسه من البرد والحمّى ولدغات الأفاعي.. وتحرك منتشيًا إلى خارج الخيمة ليشاهد ما صنع.

فعلى مدى مائتي متر تقريبًا من كل جهة حول الخيمة، كانت الخضرة تكسو كل شيء. فلقد زرع، وحصد، وأنشأ مخزنًا للغلال في واحته الجميلة الصغيرة، وبنى مسكنًا لحيواناته ودواجنه. لقد صنع جنة صغيرة على أرض لا يزال لا يعرف موقعها بالنسبة لهذا البلد الذي يحيا على أرضه!

عام كامل لم يقابل خلاله مخلوقًا ناطقًا واحدًا، حتى إنه كان يخشى على نفسه من الصمم، لولا أن أصوات الخراف الحادة كانت تأتيه بين الحين والحين لتطمئنه على سلامة أذنيه.

وكان إذا قرأ، يقرأ أحيانًا بصوت مرتفع، كأنه بهذا يؤنس وحدته، برغم أنه لا يفهم ما يقرأ عادة ولا يستوعب حرفًا إن كان صوته عاليًا في التلاوة، لذلك كان يضطر لإعادة ما قرأ مرة أخرى بلا صوت في وقت لاحق.

كان سعيدًا مبتسمًا دائمًا، يعلم تمام العلم أن لديه هدفًا، ويعلم أن لديه من القدرات ما يسمح له بالمحاولة.. ولكن كان ينقصه معرفة بداية الطريق.

وخلال ذلك العام لم ينس ليليان لحظة واحدة.. في كل حرف يمر ببصره، كان يذكرها وكأنه يقرأ ليتعلم كيف يستعيدها.

في كل لقيمة تدخل جوفه كان يذكرها، وكأنه يتقوت بالقليل من الطعام، فقط الذي يسمح له بالبقاء حيًا، لكي يواصل البحث عنها. كانت في عينيه هي الدنيا وما فيها، برغم أنها لم تعد تنتمي إليها. لم تشكل له هذه الحقيقة أزمة. كان يعتبر الأمر ما هو إلا فترة من السفر، هدنة سريعة لن تلبث أن تنقضي سريعًا، ليستعيدها مرة أخرى، مهما طال الأمد.. ومهما كلفه الأمر.

ولم ينس كيف تمناها طيلة حياته، وكيف لم يسعه الفرح بها وبوجودها بجواره أكثر من شهر واحد فقط. لذلك كان يلجأ طيلة أوقات استراحته من تعلم السحر، إلى شيئين لا ثالث لهما: إما النوم، فيحلم بها.. وإما السهر ليفكر فيها، ويتذكر كل تفاصيلها.. ويحلم بها أيضًا.

*****

وتذكر – فيما تذكر – كيف بدأت ليليان تصبح خطرًا حقيقيًا على أهل البلدة، وكيف أنها حينما بلغت السادسة عشرة من عمرها، بدأت تصرفاتها

المجنونة تتسم بالسفور والتحدي والعلنية، وكأنها لم تعد تخشى لومًا ولا سلطة ولا عقابًا، ولم يعد يمثل لها أي شيء أي قيمة تذكر.

وكيف بدأت البلدة التي تولت تربيتها منذ طفولتها، تتخلى عن نظرتها لها كطفلة بريئة يتيمة، تربت بين بناتها وأبنائها، إلى تلك الشيطانة الدموية الحسناء.

وكما سمع منهم، كيف كانوا يتحدثون عن زوجة الشيطان، قبل وفاة أمها سوزانا، عاد الحديث يتردد مرة أخرى عن ابنة الشيطان.. وتصاعدت الكراهية في نفوس أهل البلدة تجاه الفتاة، كل أهل البلدة، حتى كل من كان ينجذب إليها من فتيان سذج، ومن ضمنهم هو.

كانت تجربة قاسية، علمت الجميع أن الحب المطلق قد ينقلب بسهولة إلى كراهية مطلقة، فقط إن تواجد عامل مساعد قوي، وكان العامل المساعد هنا هو الخوف.. فعندما يصبح الخوف مرحلة تلي الحب، فمن المتوقع أن تكون المحطة التالية هي الكراهية العمياء.

وكما أحبها ماريو، كرهها بالنهاية ولم يعد يطيق لها ذكرًا. لم يصل الأمر به حد أن يتمنى قتلها بالتأكيد، لذلك كان من أشد المؤيدين لهذا القرار الوسطي الذي يكفل لهم الخلاص، ويكفل لضمائرهم الراحة بشكل ما: طردها من البلدة.

فهي لن تعدم بكل تأكيد وسيلة للمعيشة خارج هذه البلدة، كما أن هذا سوف يخفف عن كاهله عبء التفكير في مصيرها، أو الخوف منها أو

عليها.. وهكذا خرجت ليليان فان أورتن من القرية التي ولدت ونشأت بها، مطرودة منفية.

لم تبد عنادًا أو مقاومة تجاه قرار أهل البلدة الجماعي، لم تحاول إرهابهم أو حتى إقناعهم بالعدول عن القرار.

بل إن الأمر بدا وكأنه مستحب لها، وكأنها تنتويه منذ فترة، فخرجت بلا ضوضاء.. ولكن على وعد صامت بعودة قريبة.

*****

طالت غيبة ليليان عن البلدة ثلاثون شهرًا..

ثم عادت في ليلة الكريسماس لتحتفل معهم، وكأن شيئًا لم يكن.

قابلها في الطريق عائدًا إلى بيته يهم بأكل لقمة كانت معه، وكان الشارع خاليًا أو يكاد، فلم يصدق رؤيتها.. كانت بنفس هيئتها وكأنها لم تغب عنهم ليلة واحدة. فقط بدت متربة إلى حد ما، وكانت تحمل على كتفها حقيبة متسخة من الخيش، فبدت أقرب إلى المتسولين.. عرف بسهولة أنها جائعة منذ أيام لكنها كانت تخجل من طلب الطعام.

قسم ماريو شطيرة لحم مقدد كانت بين أصابعه، ومنحها نصفها دون أن يأكل النصف الآخر..

"أين كنت طيلة تلك الفترة، ولماذا عدت بعد ما حدث؟"

"هل تحزنك عودتي؟.. يمكنني الرحيل إن كان الأمر..."

"لا تكوني غبية، لقد افتقدت تواجدك كثيرًا.. تواجدك القديم! لا أصدق أنك هنا والآن، وأننا من جديد نتحدث، مثلما كنا نفعل قديمًا، قبل أن تقومي بما فعلتِ!"

لاحظ أنها التهمت نصف شطيرتها في قضمة واحدة، وقد اعتلى وجهها تعبير أثار شفقته وعطفه نحوها، فقدم إليها النصف الآخر.. قبلته بعد لحظة من التردد..

"أنا لم أفعل، أنتم جميعًا تعلمون من كانت أمي وماذا فعلَت.. ولم يكن لي أي ذنب فيما حدث، بل إنه الميراث الملعون الذي لم أختره راغبة. لقد كان الأمر خارجًا عن إرادتي، وبدلاً من أن يعتبروني مريضة مسكينة، حكموا عليّ بالنفي من بلدتي.. لقد عولجت مما ألمّ بي، ولم أكن أعرف إلى أين يمكنني الذهاب. بعد أن مرّ بي أكثر من عامين، وأنا أسعى في الأرض باحثة عمن يستطيع مساعدتي وعلاجي من هذا الداء، وبعد ذلك لم أكن أعرف إلى أين أذهب.. أنا خائفة من رد فعلهم عند رؤيتي.. ماذا تراهم يفعلون؟!"

كانت أقصر منه ببوصتين، لذا كان منظور رؤيته لوجهها الملائكي البريء الذي اتسخ بالأتربة، ووجنتها المنتفخة بالطعام، ونظرتها التي يمتزج فيها الخوف بالحزن بالظلم، من خلال مقلتيها الدامعتين، اللتين ترمقانه ناظرتين لأعلى في توسل مفتقد للأمل، مفعول السحر.

"لا تخافي.. أنا هنا معك، ولسوف أخبر الجميع بما أخبرتني، ولن يحدث أي شيء.. سيء.. مرة أخرى!"

كان مضمون عبارته مفهومًا لها، برغم سخف تعبيره. تغاضت هي عن هذا بينما تتأمل اتساع عينيه في غياب عن الواقع، وفهمت ما يعتريه حيالها من مشاعر وأفكار.

كان على حالته تلك من البلاهة والحزن، حين تقدم فضمّها إليه باكيًا، وبدا أشبه بطفل يحاول التعبير عما بداخله بأقل عدد ممكن من الكلمات التي تعلمها لتوّه، وهو يعتصرها في صدره بمزيج من ندم وأسف وخوف وشديد توق..

"سنكون معًا.. ولن.. لن.. بعد الآن!"

*****

جلسا سويًا على الرصيف بين الجليد المتساقط من السماء، وذلك الذي يكسو الأرض. كان الوقت منتصف الليل تقريبًا والشارع قد خلا من المارة تمامًا، وقد صار الطقس باردًا بشكل متوحش، لكن أيًا منهما لم يكن يفكر في الاحتماء بجدران تعزله عن الآخر. واقتربت لتجلس ملاصقة له كالقطة، طامعة في مزيد من الدفء، فأحاط كتفيها بذراعه في حركة لا شعورية، واكتفيا هانئين بتلك الشطيرة الصغيرة، غير عابئين بما يمكن أن يوجد خلف الأبواب من فطائر محلاة أو لحم مقدد.

وعلى الرغم من أنه لم يضع لقيمة من هذه الشطيرة ولا من غيرها في فمه منذ الصباح، إلا أن شعوره بالشبع كان أغلب من شعورها به.

وأخرجت من حقيبتها الكتانية زجاجة، بها شراب أحمر شفاف.. كانت فرحة للغاية.

"النبيذ، النبيذ.. لا شيء يقهر هذا البرد إلا الكحول"

قالت باسمة..

"ليس نبيذًا، بل هو شراب سحري ،كأنه آت من الجنة، أعطاني إياه ذلك اللورد الذي عالجني"

"لورد؟!"

"القس! لقد عالجني القس من اللعنة، ومنحني هذه الزجاجة، وسمح لي بتذوق ما بها.. إنه شراب للأحبة، مذاقه أحلى من العسل. نصحني بأن أعود إلى بلدتي، وأستسمح أهلي، وأشرح لهم الموقف.. وقال لي إن هذا الشراب لا يستحقه إلا شخص أحبك وصدّقك. ثم أمرني أن أقتسمه مع أول شاب من البلدة يصدقني ويحاول مساعدتي، لأنه سوف يصير زوجي ذات يوم.. هل تعلم من تمنيت أن يكون أول من أقابل من أهل البلدة جميعًا، وأول من يسامحني على ما فعلت؟"

تناول الفتى كفها، ولثمه في وله، ثم اختطف منها الزجاجة وأزاح غطاءها، وأقامها على فمه حتى أتى على نصف ما بها في جرعة واحدة..

"مما صنع هذا الشراب..؟!"

" هل راق لك..؟"

رمق الزجاجة مذهولاً..

"إنه رائع!"

"قال إنه مصنوع من العنب والعسل، وشيء آخر لم يخبرني به، حتى لا أجرب صنعه بنفسي!"

obeikandi.com

"ولماذا..؟!"

"لأنه يخشى بالطبع أن أستخدم تلك الوصفة (عمّال على بطّال)..!"

"وصفة..؟؟"

"بالتأكيد! إنها وصفة للحب.. ألا تحبني؟"

تأملها للحظات في هيام قبل أن يهمس..

"بل أنا مفتون بك تمامًا، أدرك هذا وأحبه وأفخر به!"

قالها ثم أطلق ضحكة صاخبة معدومة الاتزان..

"اخفض من صوتك، سوف ينتبه الناس لوجودنا بهذه الطريقة!"

"هل معك المزيد من هذا الشراب العجيب؟"

"لست بحاجة إلى المزيد منه، إن مفعوله سوف يستمر إلى الأبد. ولكن لدي أشياء أخرى ستحبها كثيرًا، هل تأتى معي لرؤيتها؟"

" ألن تبقي؟!"

"لا، لقد فكرت قليلاً، وتوصلت إلى حقيقة أنهم سوف يقتلونني إذا ما رأوني بلا تفكير. يجب أن نرحل إلى مكان أكثر أمنًا، مكان يمكننا فيه مواصلة حياتنا معًا، دون قلق.. ودون منغصات.."

وأضافت وقد اعتراها شرود غريب..

"مكان يمكنني فيه استكمال مشروعي الكبير!"

"أي مشروع هذا..؟!"

"سوف تعرف في الوقت المناسب، والآن: هل أنت معي أم لا..؟"

"معك بالتأكيد، في أي مكان وتحت أي ظرف.. أنا لن أسمح بفقدانك مرة أخرى مهما كان الثمن..!"

ومن جيبه أخرج دمية خزفية صغيرة، كانت دقيقة الصنع والتلوين، وكانت تمثل السيدة العذراء..

تأملها للحظة بإعجاب، قبل أن يناول ليليان إياها ببسمة عذبة، وهو يهمس في أذنها مستمتعًا بدغدغة شعرها لوجنته وأنفه..

" عيد ميلاد سعيد"

ابتعدت عنه قليلاً وتناولت الدمية معجبة..

"حُلوة، من أين أتيت بها؟"

"أهدتني أمي إياها عصر اليوم، فما وجدت عندي أغلى ولا أحب منها، كي أهديك إياها، يا حبة القلب"

"حسنًا، لا عليك.. وأنا لن أفارقك إلى الأبد!"

ووضعتها بجانبها بلا اهتمام فوق الرصيف.. سألها:

"ولكن إلى أين تنتوين الرحيل؟"

قالت ببسمة كبيرة..

"إلى الشمال...!"

قال ببلاهة..

"روما؟!"

أطلقت ضحكة مرحة..

"روما؟! بل شمال العالم!.. بعيدًا بعيدًا بعيدًا...!"

opeikandi.com

صمت لحظات ثم قال مرتبكًا..

"ولكنني سمعت أن قوم الشمال يعيشون في الثلوج طيلة الوقت، لابد أن الطقس لديهم غير محتمل"

"ليست مشكلة على الإطلاق، يمكنني تولي مهمة التدفئة فلا تقلق.."

ثم قالت بنعومة بينما تنظر في قلب عينيه مباشرة..

"ثم إنك ستكون بين ذراعيّ على الدوام، فلن تتمكن برودة القطب من أن تمس عظامك وأنت بجواري.. أليس كذلك؟!"

ساد الصمت بينهما لدقائق طويلة استكانت خلالها رأسها على كتفه، فمسح على شعرها بحنان، ثم هبطت أصابعه في نعومة تداعب شحمة أذنها، وخدّها، منتشيًا بصوت اضطراب تنفسها إزاء لمساته.. قبل أن يستفيقا فجأة على صوت غريب يقتحم خلوتهما..

"مرحى! لقد عادت الفاجرة مجددًا.."

التفتا بسرعة تجاه مصدر الصوت، فألفيا مجموعة من أشقياء شباب القرية، يعرفهم الفتى جيدًا، كانوا عائدين إلى ديارهم بعد سهرة طويلة، ويبدو أن المشهد قد استرعى اهتمامهم. كانوا يقفون وقفة عداء جماعية، موجهين كل حقدهم نحو الفتاة، وكأنهم يعلمون أن الفتى تحت تأثيرها، فلا رجاء من لومه أو محاورته من الأساس.

المشكلة لم تكن فقط في هذا التجمع المريب، أو حتى في أصواتهم العالية التي قد توقظ كل أهل البلدة، وتجمعهم في ظرف نصف دقيقة.. لكنها كانت في كم العصي والأسلحة البيضاء التي ذخر بها المشهد.

obeikandi.com

"يبدو أنها تصورتنا قد نسينا ما فعلتْ يا روميرو، وأن آخر الأخبار لم يبلغ مسامعها بعد!"

نهضت ليليان، ومن خلفها نهض ماريو مسلوب الإرادة تمامًا، ينتظر منها أي إشارة للتحرك. كانت صلبة واثقة إذ تقول..

"يمكنك الرحيل بسلام أيها الفتى، أنا مقدّرة تمامًا لتأثير الخمر على عقلك الصغير، فلن أحاسبك.. كانت سهرة جيدة، ألم تكن؟! لا أنصحك بأن تفسد خاتمتها على رءوس أصدقائك الأبرياء!"

ضحكوا كثيرًا وكأنها ألقت دعابة طريفة، ثم قال أحدهم بقسوة وهو يلوّح بعصاه..

"أنت مع الأسف من لن يمكنها الرحيل من هنا، لقد رصد "فيكتور إيمانويل" مكافأة كبيرة لمن يأتيه بخصلة واحدة من شعرك، خصلة واحدة مقابل ألف قطعة ذهبية.. يمكنك تخيل حجم الثروة التي سوف تجنيها البلدة، التي كثيرًا ما عانت بسببك، عن طريق التضحية بهذا الجسد الجميل! لكنك لن تأخذي هذا المسكين معك.. مع الأسف، يبدو أننا تأخرنا بعض الشيء، لكن تأثيرك الشيطاني على إرادته سوف ينتهي فور أن تمس النيران طرف ثوبك"

قال ماريو بلهجة مغيب..

"لن يمكنكم المساس بها. وقل لملكك هذا أن يبحث عنا جيدًا، لأننا لن نكون هنا عندما يأتي على العشاء غدًا!"

انحنت ليليان والتقطت دمية العذراء، ثم وضعتها بينها وإياهم..

"أتوقع أنكم مازلتم تكنون لها بعض الاحترام، فلن يمكنكم تجاوزها من أجل النيل مني.."

رمق الفتية الدمية الخزفية، وقال أحدهم مغاضبًا..

"أيتها الشيطانة! كيف يمكنك السخرية من مقدساتنا على هذا النحو، هل تعلمين أنه بإمكاني أن أحز عنقك فورًا دون أن يهتز لي جفن..؟!"

قالت منفعلة..

"لقد اخترتم هذا، لن يكون بوسعكم إلقاء اللوم سوى على أنفسكم بعد الآن!"

وبإشارة من يدها طارت الدمية الصغيرة في الهواء ثم تحطمت لمئات الأجزاء، وقبل أن يفهم أحدهم ما حدث كانت قد تحركت.

ob eikandi.com

"لا أكاد أصدق أنك عدت بالفعل.. أتعرفين؟ كان الأمر بالنسبة لي طيلة الوقت، أمنية عزيزة قضيت دهرًا في سبيل تحقيقها، ولكن..... "

صمت سليم عن إتمام عبارته، فقالت ليلى بحنان، متخللة خصلات شعره بأصابعها..

"لكن ماذا؟ أتحب أن أعود إلى ما خلف جدران النسيان مرة أخرى يا ماريو؟"

سارع بالقول..

"بالتأكيد لم يكن هذا مقصدي، ولكن أخشى عليك من عواقب العودة إلى مثل تلك الأفعال مرة أخرى. لقد قمنا بالعديد والعديد من الأشياء غير السارة، حتى إنني صرت أتمنى أن تتذكريني وتتذكري الطلسم الأخير في الكتاب، فقط حتى نتم الجزء الخاص بنا من الصفقة، ثم لا نعود بحاجة لاستخدام السحر بعد الآن.. هل فهمت ما أقصد؟"

تنهدت، وأنزلت بصرها نحو الأرض التي يفترشان، متأملة ذلك الشعار الدائري الذي يشبه المتاهة بإعجاب..

"أعدك أن ينتهي كل شيء سريعًا، فقط بعد أن تنتهي من روايتك لما كان.."

*****

عام آخر مر عليه هنا.. عام تغيرت خلاله الكثير من الأمور.

كان قد أتى على أغلب ما لديه من كتب، وصار أكثر قوة من ذي قبل بمراحل، لكنه كان يعلم جيدًا الفارق الجوهري ما بين الموهبة والاجتهاد..

لذلك لم يكن يحلم بالوصول لمستويات عظيمة من إتقان السحر، إلا لو كان هذا هو السبيل الوحيد لتحقيق هدفه الأكبر.

وصارت واحته الصغيرة مزارًا لأهل البادية من قاطني الصحراء الغربية، وعرف أنه يقطن على مسافة بضعة كيلو مترات من الواحات الخارجة، لكنه لم يكن يعلم موقع هذا المكان من خارطة العالم، ولم يكن يهتم.

وكان اللقاء الأول بينه وأول بشري يقتحم خلوته فريدًا وطريفًا لأقصى حد! وضحك كثيرًا وهو يتذكر كيف صرخ الرجل ذو الجلباب القصير لدى رؤيته وما يحيط به من زرع وأغنام، ثم تمرغ في التراب أسفل قدميه وهو يرجوه أن يشمله بحمايته و(كراماته)! لم يكن يستوعب الموقف بشكل كامل، لكنه قدّر أن الناس في هذا البلد، وبالذات البدائيون منهم لديهم فراسة معينة فيما يخص من يعمل بالسحر. فهم قادرون على معرفته من النظرة الأولى، كما أنهم يقدسونه كديدن البدائيين في كل مكان من الدنيا، ويدرجونه تلقائيًا في خانة (الدين)، برغم اختلاف السحر مع معظم ديانات هؤلاء القوم!

على أنهم كانوا يتصرفون معه بشكل يخلو من الذوق أحيانًا.. فهو يذكر ما حدث بعد أن رحل عنه ذلك الرجل مسرعًا، وكأن به مسًا من الجنون. لقد كان غافيًا في خيمته في الليلة التالية حينما فوجئ باقتحام عنيف للخيمة من قِبل بعض الرجال، قدّر عددهم بعشرة تقريبًا وكان معهم امرأتان شابتان. دون استئذان، وقبل أن يتخذ أي رد فعل دفاعي أو حتى يبدي أي اعتراض، وجد المرأتين قد انطلقتا بداخل الخيمة، لإعادة ترتيب كل ما بها

من توافه الأغراض، والتوجه بالآنية القليلة القذرة نحو القناة الصغيرة التي تروي المزروعات لغسلها. بينما تولى الرجال مهمة غسل الرجل وتشذيب لحيته التي طالت مع الزمن وعدم الاعتناء، ثم تبديل ثيابه الرثة القذرة بأخرى جديدة ناصعة البياض، كانوا قد أتوا بها معهم من ديارهم!

كل هذا بينما هو خائف، لا يفهم من هؤلاء ولما يفعلون كل ذلك. ولم يرد لهم الإيذاء، فلم يحاول دفعهم عنه بالقوة، وحتى لو حاول أن يفعل، فلم يكن يظن أن كل علمه وقوته، واعتراضه على هذا التطفل غير المسبوق، بقادرين جميعهم على قهر تلك الإرادة الفولاذية الشعبية المجتمعة معًا!

وفي النهاية ألفى نفسه، وقد عادت إليه آدميته بعض الشيء، وأن الخيمة قد صارت أكثر قابلية لاحتواء البشر.

ثم حان وقت الكلام، فلم يفهم أغلب محتواه. كانوا يصرون على دعوته بـ (سيدنا الشيخ)، كما أنه عرف أنهم يتصورنه (وليًا) ولم يفهم معنى الكلمة، لكن خلاصة الأمر أنهم كانوا يبغون بعض العون السحري منه، فيما يخص بعض شؤونهم. لم يضره الأمر إلى حد كبير، فهو برغم كل شيء مازال في احتياج إلى تواجد بشري من حوله مهما كان تصنيف هذا التواجد، وهو الذي لم ينتبه إلى تلك الحقيقة إلا عندما احتك بهم، وتفاعل مع حيواتهم البائسة، ولو كان مجرد تفاعل نسبي. وكان أجمل ما بالموضوع أنه حدد لهم موعدًا أسبوعيًا لزيارته، وأنهم التزموا بهذا الموعد على الوجه الأكمل.

لكنه في كل مرة كان يلاحظ أن مستوى تقديسهم له يرتفع شيئًا فشيئًا، كما أن شعبيته صارت إلى تزايد مستمر بين هؤلاء القوم. ولم يكن هذا مما يطمئنه بحال، لذا فقد بدأ يفكر جديًا في الارتحال عن هذا المكان، حتى ما إذا أتى القوم ذات يوم ولم يجدوه هنا، نسوا وجوده وتركوه لحاله، ليعود كما كان وحيدًا هانئ البال بخلوته.

راودته الفكرة، بينما هو جالس إلى أحد كتبه، أو كتب ليليان بمعنى أدق، يحاول إبقاء جفنيه مفتوحين. وكان الليل قد انتصف منذ فترة لا بأس بها، ولم يكن قد حظي بنوم جيد خلال الأيام الثلاثة الماضية، لذلك لم يشعر بنفسه حينما انكفأ على الكتاب، وذاب العالم من حوله..

*****

استيقظ.

فوجد أنه يفتح عينيه على عالم عجيب للغاية، شديد الإظلام، عطن الرائحة إلى درجة الشناعة.

وتقلصت أنفه بعنف، وهو يدور بعنقه بحثًا عن تفاصيل خيمته التي ألفها، فلم يجد أيًا منها بالمكان. حاول النهوض مفزوعًا، ليكتشف أنه مقيد إلى فراشه الـ.. فراش؟!

لم يكن فراشًا بالمعنى المتعارف عليه، بل كان عبارة عن لوح حجري طويل يشبه المذبح، وكان مقيدًا إليه بسلاسل حديدية غليظة. امتلأ قلبه بالهلع بينما يحاول اختراق حجب الظلام بعينيه الواهنتين، ليتبين أين هو. قبل أن يسمع أصواتًا لحركة وكلمات خافتة تتردد بالخارج..

obeikandi.com

"لقد استيقظ.. حان الوقت"

كان الصوت مفزعًا للغاية، لا لسبب معين، لكنه وجد نفسه مع كل حرف يبلغ مسامعه، يرتجف، وتنغرس في عظامه برودة مخيفة. وارتجف بدنه بشكل أعنف، حينما سمع صوت الصرير المرتفع لباب حديدي يُفتح..

كان الباب واقعًا خلف رأسه فلم يتبين أي تفاصيل، وبرغم أنه قد فتح عينيه بالفعل، إلا أن ضوءًا ما لم ينجح في التسلل إلى الداخل ولو بنسبة ضئيلة. وشعر بقيوده إذ تنحل بخشونة، قبل أن يُحمل من كتفيه حملاً كالخرقة إلى خارج هذا القبو الرهيب، دون أن يرى أي شيء، ودون كلمة واحدة، لا منه ولا من غيره.

*****

لم يطل بهم المسير، حتى ألفى نفسه في قلب تلك القاعة الكبيرة.

كانت تشبه كهفًا واسعًا منحوتًا بقلب جبل، تتناثر المشاعل على جدرانه بصورة لا تسمح له برؤية أي شيء. فقط لاحظ أن بصدر المكان، مقعد كبير مرتفع من الصخر.. هل هو عرش؟!

في قلب الجبل..؟؟

لم يحاول تأمُّل ذلك الجالس فوق العرش، ولم يحاول استخلاص أي تفاصيل عنه، ولا عن المكان، ولا عن أي شيء، وإن حاول لما استطاع!

كان الأمر غامضًا مهيبًا، يشبه الكوابيس إلى حد كبير. وكانت تلك الفكرة هي ما احتفظت له بسلامة عقله حتى ذلك الحين.. فكرة أنه قد يستيقظ في أي لحظة وتنفض (الآرينا) فورًا.

فقط لاحظ أن لذلك الجالس فوق العرش مهابة ما، جعلت حامليه يتركونه مرميًا على الأرض، ويتراجعون في خوف إلى الخارج. وتكلم الجالس.. ومع كلماته غزت القشعريرة جسد ماريو، كدبابيس دقيقة، تغرس بكل موضع من جسده.

"انهض أيها البشري!"

نهض ببطء على ساقين من ورق..

"أنت أتيت إلينا بقدميك أيها البشري.. فهل تعلم عواقب اختيارك؟"

حاول أن يعترض، أن يقول إنه استيقظ ليجد ذاته هنا بلا مقدمات، أن يسأله من أنت.. لكنه وجد لسانه قد شل تقريبًا، وأن حلقه جاف كالحطب..

"نعم، أنت اخترت بإرادتك أن تكون هنا.. ألم تتل خطاب الاستحضار بالأمس؟ لما أردت مقابلتي أيها البشري.. انطق!"

هنا فقط أحس بأن عقدة لسانه قد انحلّت، وصار يقدر على الكلام..

"من أنت؟!"

شعر أن جدران الكهف تردد صوت ضحكة ساخرة بعيدة، لم يطلقها أحد..

"ألا تعرف حقًا من أنا؟ حسنًا.. لك أن تعتبرني سيدك الجديد! لن نضيع الوقت في محاورات بلا طائل. أنت لديك هدف ما، أستطيع معاونتك على الوصول إليه، وأنا لدي هدف آخر، سأستخدمك في تحقيقه.. ما رأيك في هذا العرض؟!"

شعر ماريو أنه بدأ يعرف أين هو، ومع من يتفاوض، لكن هذا ويا للعجب أثار بداخله بعضًا من الشجاعة، وساعد دماءه على العودة إلى مساراتها الطبيعية بداخله، وكأنه لا يأبه بحقيقة موقفه هذا بقدر ما يهتم بمعرفة أنه صار قريبًا من تحقيق هدفه الأكبر. لابد من أن هذا يحدث بالفعل، ليس جنونًا، وليس كابوسًا كما ظن. واستنادًا إلى هذا المنطق، قال واثقًا..

"إن هدفي الوحيد هو استعادة ليليان، هل تظن أن بإمكانك إحياء الموتى؟!"

"ربما لم يكن هذا باستطاعتك ولا استطاعتي، لكنني برغم ذلك أستطيع منحك إشارة ما، أو مساعدة إن احتجتها.."

"في سبيل ماذا، إن كنت أنت تقول إن هذا مستحيل!"

"استعادتها ليست أمرًا مستحيلاً، إلا لو كانت الطريقة الوحيدة لذلك هي إحياءها من جديد.."

"أرجو ألا تكون الطريقة الوحيدة المتاحة أن أذهب أنا إليها!"

oneikandu.com

"مازلتم أطفالاً أيها البشر، تصدون عنكم فرص النجاة بحماس، وتهرعون إلى قلب الجحيم بذات الحماس، وكأنه لا أعين لكم ترى، ولا قلبًا يحس، ولا عقلاً يفكر!"

وتفاجأ ماريو بأنه مُلقى على ظهره، وكأن يدًا خفية قد دفعته بقسوة، فوقع على الأرض الصخرية الصلبة معدوم الحيلة، تلتف حول جسده قيود وسلاسل قوية. بينما فوق عنقه سُلِّطت العديد من السيوف العملاقة المخيفة، التي لا يحملها أحد.

"إنه عرض لدقيقة واحدة، أنت تحلم باستعادة فَتاتك، ونحن أيضًا نهتم برجوعها. سوف أساعدك حتى تحصل عليها من جديد، ثم تستخلص لنا منها معلومة صغيرة، لا أحد على وجه الأرض يملكها. كانت هي الأخيرة، وقد ماتت.. هذا هو المقابل، فهل تقبل بالعرض؟!"

رمق ماريو النصال المسلطة على عنقه مرتجفًا، وفكر أنها طريقة تفاوض لا يمكن أن تخيب..

"أهي معلومة استعصت عليكم، ولم يمكنكم التوصل إليها إلا عن طريق ليليان؟"

صمت محدثه المهيب لثوان، قبل أن يشير بذراعه فترفع السيوف ويسمح له بالنهوض..

"كان هناك بين كتب ليليان حبيبتك، كتاب يدعى نجمة الأسرار، أظنك رأيته من قبل. إن هذا الكتاب يحتوي على أهم أسرارنا بالفعل، أهم ١٠٠٠ سر على مستوى تاريخنا بأكمله. نحن قد سمحنا لها بأن ترث الكتاب عن

obeikandl.com

والدتها، لأننا اخترناها لتعرف. وهي كانت حريصة أشد الحرص على الاحتفاظ بالأمر تحت أقصى درجات السرية، لدرجة أنها قد انتزعت الصفحة رقم ألف وحفظت محتواها جيدًا، قبل أن تتخلص منها..

إن تعويذة العبودية هي السر رقم ألف، وذروة أسرار النجمة، ولقد فُقدت من الكتاب. وبعد ذلك فقدنا حاملتها الوحيدة، فلم يعد للتعويذة على وجه الأرض من ذِكر، نجمة الأسرار عادة ما تورَّث أسرارها ولا تُمنح، وقد كانت الفتاة آخر من ورثها من بين آهلي عالمكم وعالمنا على حد سواء.. هل يمكنك استيعاب هذا؟"

"هل تعنى أنكم منحتم نجمة الأسرار لوالدة ليليان، وكان من المفترض أن يتم توريث هذا السر عبر الأجيال البشرية بلا تدخل منكم؟"

"لم يجانبك الصواب في الجزء الأخير أيها البشري، لكننا لم نمنح نجمة الأسرار لسوزانا، بل ورثتها هي عن سحرة آخرين. هل يمكنك تخيل أن دورة توارُث هذه النجمة يتجاوز آلاف السنين؟ فقط بشرط واحد، ألا تكون النجمة مع شخصين أو أكثر في ذات الوقت. فقط ساحر واحد على مستوى زمنه، وهو حر في اختيار طريقته المناسبة في توريثها لمن يأتي من بعده، ليستأنف العمل على المهمة"

هز ماريو رأسه متفهمًا..

"وما نوع هذه المهمة إذن..؟"

"لن تعرف أيها البشري، ولن يمكنك أن تعرف إلا في حالة أن ترث السر. لا يمكنك تخيل حجم الكارثة التي قد تنشأ عن فقدان سرنا الأعظم،

تلك الكارثة التي تنتظرنا كما تنتظركم. والآن وبعد أن عرفت كل ما يهمك معرفته، سوف تحاول استعادة فتاتك، وحين تنجح سوف يمكنك استخلاص سرنا الأعظم منها، وبذلك تكون أنت من يرث المهمة، ويسعى بها نحو النجاح. سنساعدك ونكون معك في كل خطوة، لكنني لن أخبرك بما ينتظرك من مصير أسود، لو لم تنجح في مهمتك.. لنجعلها مفاجأة!"

وارتجف ماريو حينما سمع جدران الكهف، إذ تردد صوت الضحكات المخيفة مجددًا، قبل أن تظهر أمامه من العدم ما يشبه مائدة حجرية، فوقها ثلاثة صناديق متماثلة مغلقة.

"بإمكانك انتقاء الوسيلة التي تراها هي الأنسب، في معاونتك على استعادة ليليان. ولا تخف، يمكنك فتح الصناديق الثلاثة، واختيار إحدى الوسائل.. لن نفرض عليك اختيارًا معينًا!"

تأمل ماريو الصناديق مبهوتًا، ثم قال وكأنه يستشعر الخديعة..

"وكيف لي أن أعرف الطريقة الأمثل لاستعادتها؟ أنت أدرى مني، فلتختر أنت!"

"بإمكاني أن أؤكد لك أن صندوقًا من هذه لصناديق يحتوي على وسيلة فعالة لمعاونتك، على أداء مهمتك. وبإمكانك التوصل إليه ببعض الحكمة، أنت تعلم أن الحكمة ليست كل شيء، لكنها أحيانًا تصبح قيمة حقيقية!"

لم يجادل كثيرًا، بل انطلق يعالج الأقفال الثلاثة للصناديق، في ذات اللحظة. وكان ما رآه مخيبًا للآمال.

في أحد الصناديق وجد كتابًا مهترئ الغلاف وبلا عنوان، كان كبيرًا بصفحاته العديدة المتآكلة الحواف. في الصندوق الآخر وجد بعض العملات الذهبية، غير محددة الزمن ولا الموطن. كانت عبارة عن عشر قطع صغيرة مستديرة من الذهب، في حجم العملات العادية، لكنها كانت بلا نقوش من أي نوع. وأما أسخف ما وجد فكان في الصندوق الأخير. وهو الذي كان يتصور أنه سوف يعثر على زجاجة دواء، أو ورقة مدون بها تعويذة سحرية، أو أي شيء قد يحمل قيمة ما. ولكن الطريف أنه لم يجد بالصندوق سوى ثمرة واحدة متوسطة الحجم من التفاح الأخضر!

"أنت ضمنت لي أن صندوقًا من بين الثلاثة، يحتوي على الوسيلة المناسبة.."

"ماذا اخترت أيها البشري؟"

وقف ماريو أمام الصناديق واجمًا. إنه قد اعتاد طيلة حياته على أسلوب معين في المفاضلة بين الأشياء.. فإن عرض عليه شيئان، بحث عن الأصل فيهما، كأن يعرض عليه مثلاً أن يختار بين برتقالة صغيرة، أو كوب كبير من عصير البرتقال، فيفضل أن يختار ثمرة البرتقال. وكان في هذا يستند إلى مبدأ أنه قد يستطيع الاستفادة من البرتقالة على حالتها السليمة بشكل أكبر، فإن لم يرد، فإن بوسعه أن يعصرها في أي لحظة!

لذلك كانت حيرته شديدة بين قطع الذهب، وذلك الكتاب القديم. فكر أن يدس قطعة ذهبية بجيبه للتأكد من شيء ما، وبالفعل كما توقع تمامًا، وجد أن قطعة الذهب قد تجسدت في الصندوق مرة أخرى ببطء وكأنها

أتت من العدم، وبالتأكيد عندما مد أصابعه بداخل جيبه لم يجد أي ذهب من أي نوع! فكر بينه ونفسه..

"حسنًا، من الواضح أن هذا الذهب ليس إلا مجرد رمز.. ربما كان يرمز للفتنة، أو للطمع مثلاً.. سأعرف عندما أرى ذلك الكتاب، فإن كان كتابًا مقدسًا، لكانت المقارنة بين التقوى والفتنة.."

صاح الجالس على العرش مندهشًا..

"تفكير جيد! ولو كان كتابًا عاديًا؟!"

لم يندهش الفتى من حقيقة أن أفكاره صارت مشاعًا بهذا الشكل، بل قال مفكرًا..

"أعتقد أن.. حقيقةً لا أعرف! فلنر أولاً"

ومد يده يفتح الكتاب، فقط ليتأكد من أن الغلاف القديم الفخم، الذي يشي مظهره بالخطورة، يضم بين ضفتيه مئات الصفحات البيضاء تمامًا بغير سوء..

"ولا كلمة؟! عظيم.. كتاب عظيم!"

وضع قبضتيه في خصره وتأمل الصناديق الثلاثة، قبل أن يقول متناولاً التفاحة الخضراء ويقضم منها قضمة..

"أعتقد أن هذه هي الوحيدة التي لن تتمكن من.."

"قضي الأمر، لقد اخترت بالفعل!"

التفت ماريو إلى الجالس على العرش، صاحب العبارة التي قاطعته منذ لحظة واحدة، وهو يلاحظ اختفاء الصناديق الثلاثة..

"ألا ترى أن الأمر يبدو وكأنك دفعتني دفعًا نحو هذا الاختيار بالذات؟!"

"إنه كذلك بالفعل! لو أنك فكرت في أن الكتاب إشارة لفكرة الحكمة، والذهب يرمز للثراء..."

قال ماريو، مكملاً الجملة بنفسه..

"لكانت التفاحة الخضراء رمزًا للصحة.."

"بالضبط، لكننا هنا نصنع المطلق كما تصنعون أنتم حساء الدجاج.. الحكمة لدينا مطلقة، الثراء أبديًا..!"

قال متشككًا..

"لعل الصحة لديكم لا تعني الخلود!"

"إنك شديد الذكاء أيها البشري. إنها بالفعل تعني الخلود، ولكن ليس بمفهومكم الساذج الطفولي.. أيًا كان مفهومه لدينا، لو خُيرت بين الخلود، والحكمة المطلقة، والثروة الأبدية، فأيهم تختار كوسيلة لمساعدتك في استعادة ليليان؟"

فكر قليلاً..

"لا أعتقد أن هناك خلودًا، ولو كان موجودًا فلا أعتقد أنه قد يساعد على إعادة الموتى من قبورهم! ولكن لو أن الحديث يدور بشكل تجريدي، فمن الممكن أن نطبق ذات الكلمات على الثراء والحكمة سواء بسواء. إذن المحك الحقيقي هنا هو: إن كان ثمة خلود فعلي، فهو يمنحك الوقت

اللازم لاكتساب الحكمة، وسيتبقّى لديك وقت إضافي لصنع الثروة.. أعتقد أنني أحسنت الاختيار!"

"بل إن من أحسن الاختيار حقًا هو أنا.."

التفت ماريو تجاهه صامتًا، فأتبع بصوت عميق..

"لقد اخترتك منذ البداية لهذا الغرض، والآن أعلم تمام العلم أنني لم أخطئ، إنك الوحيد القادر على إتمامها بالفعل. ستفعل أيها البشري.. سوف تستعيد حبيبتك، وسوف تعلم السر المفقود من نجمة الأسرار.. رأيت هذا الآن"

"لا أفهم! كيف تقول إنك من اختارني للمهمة، وقد قلتَ من قبل أنني أنا من طلب القدوم إليك وأتى بإرادته راغبًا في العون؟ ثم إنك لم تخبرني كيف ولا متى أستطيع استعادة ليليان، ولا ماذا أفعل عندما أعثر على هذا السر المفقود؟!"

"كل أسئلتك ستعلم إجاباتها في الوقت المناسب، كل ما يهمك الآن معرفته، هو أنك بالفعل قد حصلت على الخلود الذي اخترت بإرادتك ورغبتي"

"أيعني هذا أنني لن أموت..؟؟"

"بل تموت وتشيخ، ولكن ليس كما يفعل الناس. ستلاحظ أن عقدًا تامًا مما يمر بالخلق، سوف يمر بك وكأنه عام"

قال ماريو مستمتعًا..

"أي أنني سوف أبدو بعد مئة عام، وكأنني في بداية العقد الثالث!"

"كذلك سوف أتكفل بحمايتك من محاولات القتل، وسوف أقيك آثار التسمم، وأقطب لك الجروح، وأمنع شرايينك من الانسداد، وأحول بين حوادث السير وإياك، وأحصنك ضد الانفجارات بأنواعها. قل إنني سوف أعين لك حارسًا شخصيًا، مع طاقم تمريض فوري لا مرئي، ليعنى بك عناية تامة"

" أظن هذا كافيًا كي لا أموت"

"بل تموت! فقط في ثلاثة أحوال تموت، الأولى أن تقتل نفسك بنفسك.."

"لا أظنني هذا الشخص"

"والثانية أن يقتلك محب لك. ولا يجوز القتل الخطأ، بل يشترط النية والعزم!"

"احتمال معقد بما يكفي لتجنّبه.."

"أما الثالثة، فهي حين يقرر قلبك أن يكف عن النبض بلا سبب!"

"تعني عندما يحين أجلي.."

"أو كما قلت"

"هذا أكثر من كافٍ، لجعلي أقرب إلى الخلود كما نصطلح عليه"

"يمكنك الاستمتاع بنتيجة اختيارك، فور أن تخرج من هنا، عليك أن تبدأ بترتيب أوراقك لتعلم في أي طريق سوف تسلك، ولكن ينبغي أن تعلم أمرًا شديد الأهمية، سوف تنال فرصتك كاملة لتحقيق هدفك وهدفنا، ولكن إن فشلت.."

"ماذا ستفعل بي..؟!"

"سيكون لنا لقاء آخر، ولسوف تعلم!"

استعاد الفتى رجفته، وقد تذكر أين هو ومن يخاطب..

"هل يمكنني الخروج إذن؟!"

"فقط إن أجبت سؤالا أخيرًا، لقد كانت الاختيارات الثلاثة بين الثروة والحكمة والصحة، وأنت اخترت الأخيرة لأنها الوحيدة القادرة على منح الفرصة لتحقيق الاختيارين الآخرين، أليس كذلك؟"

"بلى"

"لكنك تعلم تمام العلم أنه لا المال ولا العلم ولا طول الأجل، ولا الثلاثة مجتمعين يستطيعون إحياء من مات بالفعل. فلما تراني منحتك ما منحت على سبيل المساعدة؟!"

توتر ماريو..

"مبدئيًا : ليس هذا فخًا وأنت أكدت لي أنني أحسنت الاختيار، ألم يحدث؟"

"هذا ليس فخًا وليس مزاحًا أيها البشري!"

"إذن فلا أظن أن استعادة ليليان سوف تكون بإحيائها، ولا أظن الأمر يحتاج إلى شخص تجاوز عمره قرونًا من الزمان. ربما كان معنى هذا أن الوسيلة التي قد تساعدني على استعادتها لن تتاح قبل مرور زمن طويل؟"

opeikandi.com

"لقد اقتربت من الحقيقة، ولكن ألا تظن أنه كان من الأجدر والحال هكذا أن نوظف لأداء المهمة شخصًا يحيا في هذا الزمن البعيد الذي تعني؟"

فكر قليلاً ثم قال..

"ربما كانت هذه الوسيلة تتطلب إعدادًا مطوّلاً إلى هذا الحد، أشعر بأن الكثير من العمل ينتظرني.."

صمت الجالس على العرش طويلاً، بالنهاية قال..

"سوف تعود إلى حيث كنت أيها البشري، وسيكون لك حق التجربة والخطأ كما يحلو لك، ثم نلتقي!"

*****

في الصباح التالي، استيقظ ماريو فيبوناتشي في خيمته، على ذات الوضع الذي نام عليه، وبين يديه ذات الكتاب الذي كان يطالعه حين غفى. واستغرق منه الأمر وقتًا طويلًا، قبل أن يفطن إلى أن ذلك الكابوس العجيب الذي راوده أثناء غفوته، لم يكن كابوسًا.

تفاصيل عدة مرت به خلال الأيام التالية، جعلت دهشته تتنحى جانبًا مع الوقت، لتفسح المجال للتفكير العقلاني المستند إلى المنطق. ربما كانت حقيقة أنه لم يمت، بعد تعرضه لعدة إصابات قاتلة متوالية بشكل مدهش، أدعى إلى التأمل، من الدهشة أو الرعب أو أي شيء آخر..

ترى ما الطريقة المثلى للانتفاع بمثل هذا الشيء؟!

obeikandl.com

كف سليم، أو فيبوناتشي، عن الكلام. ثم طوى ذراعيه أسفل رأسه متوسدًا إياهما، بينما استلقى فاردًا ساقيه فوق سطح المبنى الإداري لمؤسسة (داغر) للمقاولات العامة. وبجانبه رقدت ليلى في ذات الوضع، تنصت إليه، حتى انتهى. وقد تماست أطراف أقدامهما في حرف V ضيّق الزاوية.

كانت الشمس قد مالت إلى المغيب منذ ساعة أو تزيد، وبدأ الهواء يشتد إلى حد ما في تلك البقعة التي ترتفع عن سطح الأرض بمقدار ستين مترًا على الأقل. لكن هذا لم يكن يمثل أهمية عظمى، قياسًا إلى مدى السعادة التي اعترتهما، كل وأسبابه.

"يعني انت استنسختني من ليلى القديمة؟!"

"إيه رأيك؟ عملت تجربة أولى بس فشلت.. يعني انتي الجيل التالت!"

واستنشق جرعة كبيرة من الهواء قبل أن يقول..

"لورا كانت من أول ناس انضموا لي واشتغلوا معايا في مشروعي الكبير، كنت عارف إن اهتمامها بالموضوع اهتمام علمي بحت، عشان كدا وافقت أعمل لها قسم في مستشفى لندن، تلعب فيه براحتها وتبتكر، وتوصل لأنجح طريقة ممكن أرجّعك بيها، لحد ما في يوم اتصلت بيا، وبشّرتني إنها قدرت تخصب بويضتين، وعشان كنا عايزين كل حاجة تبقى في السر، هي قررِت تشيل مسؤولية حمل الجنين بنفسها"

"أمال النسخة الأولانية فشلت ليه؟"

© beik andir.com

"جالها نوع من الصرع كدا، بسبب الطريقة اللي استخدمناها في محو ذاكرتها.. للأسف في النهاية انتحرِت!"

هزت رأسها ببطء وساد الصمت للحظات، ثم في النهاية مالت برأسها نحو باب المصعد الذي خرجا منه إلى هذا السطح..

"مش دا الأسانسير اللي شربتني فيه القهوة لما قابلتك أول مرة؟!"

قال بصوت خفيض..

"عالم كامل من التفاصيل الصغيرة، كان لازم أبنيه بنفسي طوبة طوبة، وأرص كل حباية رمل في مكانها. رجوعك ماكنش سهل فعلا يا ليلى. أمّال لو حكيت لك على ليلة ما سافرت لندن مخصوص، وفتحت المقبرة الأثرية عشان أسرق راسك؟! تخيلي دا كان تاني يوم إعلان الكشف الأثري العالمي، ولغاية دلوقت مش مستوعب الموقف دا مر إزاي، ولا إزاي عرفت أرجع في طيارة، ومعايا **Ice box** فيه العينات، من غير ما حد يوقفني؟"

"يابني انت ساحر! سااحر"

"طول ما انتي في قلبي، طول ما أنا لسه بخاف وأقلق وأحلم.. طول الوقت كنت زي الطفل الصغير اللي مستني أمه ترجع من السوق، وماسك نفسه عشان مايعيطش!"

"لدرجة إنك تألف كتاب كامل وتنسبه لي؟!"

قال مبتسمًا في فخر..

openkanan.com

"والبنت اللي كانت رايحة جاية معاكي في كل مغامراتك السرّية، والكتب اللي كنتي بتشتريها من المكتبات، المركز التجاري، الراجل اللي قطف الوردة وعجبك منظره.. كل دا وأكتر أنا اللي اهتميت بيه بنفسي!"

قالت راضية..

"أحسنت! بجد تسلم إيدك"

"بس فيه حاجة أنا مش فاهمها، هي الذكريات والخبرات المكتسبة مش المفروض إنها مش بتتورّث؟"

"الحالة دي بالذات مالهاش حل غير التوريث. سوزانا ماتت وهي بتولد ليليان، تفتكر نقلت لها المهمة إزاي وإمتى؟"

اعتدل سليم جالسًا، وقال نافضًا الأتربة عن كمّي قميصه، بينما كانت سترته ملقاة بجانبه..

"كام سنة وأنا بقلّب في كتبك، لغاااية ما فهمت مع الوقت إن نجمة الأسرار مش ألف سر.. هو سر واحد كبير متكامل، زي لعبة لها ألف مرحلة. فضلت أحارب وأسافر وأشتغل وأدوّر، لغاية ما عديت كل المراحل، ومابقاش فاضل غير التقفيلة!"

سألت ليلى..

"وبعد كل دا وصلت لإيه؟"

"اللي قدامك دا!"

وأشار بذراعه نحو الشكل الدائري العملاق، الذي يمثل شعار الشركة..

"انت ماكنتش عارف الرمز دا معناه إيه، وعملته شعار للمؤسسة بتاعتك؟"

هز كتفيه دون رد، ثم قال بعد دقائق من التفكير..

"جزء من الصفقة اللي كانت ما بيني وبين المخلوق دا، إني أكوّن ثروة كبيرة، دا كان جزء من الهوم وورك بتاعي! طلب مني أنشئ شركات كتير على مستوى العالم، وكان عنده شرط أساسي إني أوظف عندي أكبر عدد من الناس. أنا طبعًا كنت عارف إن الموضوع مالوش علاقة بحل مشاكل البطالة! واضح إن كان ضروري أحقق رقم معين من الأتباع اللي شغالين عندي، وبينفذوا أوامري. تعرفي إن آخر إحصائية لعدد الناس اللي شغالين معايا بتقول إن العدد اتخطى مليون و ٢٠٠ ألف؟! رقم مرعب. الغريب إني بعد ما بدأت اشتغل وأكوّن ثروة، لاقيت نفسي باختار الشكل اللي عامل زي المتاهة دا، عشان أحطه على كل حاجة شايلة اسمي، يمكن كنت فرحان بالإنجاز عشان قدرت أفك الأسرار؟"

أعادت ليلى بصرها ناحية الشعار..

"تسلم إيدك، كنت واثقة إن انت اللي هاتقدر تحقق المعجزة، وتفك طلاسم النجمة.. جبت لي معاك الكتاب؟"

التقط سترته، ومن جيبها الداخلي أخرج مغلفًا متهالكًا، منحها إياه..

"أهو! بس خلي بالك الصفحات ضايعة خالص"

فضت ليلى المغلف بحذر، وأخرجت الصفحات المنفصلة، ثم نهضت وتوجهت نحو المتاهة الدائرية المحفورة في الأرض، وظلت للحظات تنقل بصرها بين الرمز والصفحات بين يديها، قبل أن تعلن في انتشاء..

"كل حاجة تمام قوي، برافو عليك.. جهزت عقود نقل الملكية؟!"

رمقها في ذهول..

"وانتي عرفتي منين موضوع نقل الملكية دا؟!"

"قل لي انت عملت كدا ليه، وأنا أقول لك عرفت منين!"

قال متحيرًا..

"مفيش! كنت بس عايز أعمل لك مفاجأة، و.."

لم يتم عبارته إزاء نظرتها الحنون المشفقة التي قالت بعدها..

"يا حبيبي مش دا السبب، انت عملت حاجات كتير وانت مش عارف سببها، زي بالظبط ما اخترت شعار شركاتك هو نفسه حل طلاسم النجمة. يعني انت وصلت بثروتك واستثماراتك للحجم دا علشان تخلق لنفسك كل العدد المهول دا من الأتباع.. وبالعقود دي كلهم رسميًا هايبقوا تابعين ليا أنا، صح؟"

هز رأسه في بطء أن نعم، فأكملت مشيرة بإصبعها نحو السماء مبتسمة..

"ودلوقت زي ما انت شايف، البدر في وسط السما زي الريال الفضة.. كمان دقايق، النور بتاعه هاييجي على الشعار، وهايستمر دقيقة واحدة.. تيجي نبدأ عشان مانضطرش نستنى لبكرة؟"

obeikandl.com

وتوجهت نحوه لتتعلق بعنقه في دلال، بينما نظراتها تلتهم ملامحه التهامًا. اقتربت أكثر وشبّت على أصابع قدميها كي تطال شفتيه، في البداية مررت شفتيها عليهما بنعومة، سامحة له بتذوق عطرها الأخاذ، والتنعّم بملامسة بشرتها الدافئة، قبل أن تنقض عليهما ملتهمة إياهما بجنون ووحشية، أشعلا النار في قلبه وعقله وروحه وأطرافه. في النهاية ابتعدت ببطء لتتأمل عينيه جيدًا، فبدا وكأنها قد سلبته إرادته تمامًا وصيّرته عبدًا لها. كانت تلك هي طريقتها المفضلة!

"يخرب بيت سنينك! انتي حطيتي لي إيه في البوسة دي؟!"

ضحكت، ثم سحبته من كفه، وسارت بخطوات ناعمة، فتبعها كطفل يتبع أمه في وسط الزحام، وسار معها نحو الدائرة. بنعومة فكت أزرار قميصه، ثم طلبت منه أن ينام عاري الجذع في مركز المتاهة تمامًا.

كان يطيعها في سلاسة غير عادية، مما دل على أن إرادته قد انعدمت تمامًا، فقالت مبتسمة وهي تخرج من حقيبتها الصغيرة سكينًا طويل النصل حادًا لغاية، وتتجه نحوه غامزة بعين واحدة كالقطط..

"دلوقت تعرف الجزء اللي فاتك من القصة الطويلة دي.......!"

*****

وضعت السكين فوق صدره العاري، ثم جلست متربعة إلى جواره، وقد أراحت ذقنها فوق قبضتيها المضمومتين وهي تقول..

"اللورد اللي انت قابلته دا، بقى له كام ألف سنة نفسه يعبر الحاجز ما بين العالم بتاعنا والعالم اللي هو فيه، هو إمكانياته تسمح له يبقى نصف إله

obeikandl.com

بالنسبة للبشر.. بس هو في مكانه مجرد جندي في جيش مالوش أول من آخر. كتير حاول ولا مرة وصل لحاجة. المساعدين اللي كان بيختارهم أغبيا كلهم، كلهم وقعوا في نفس الغلطة، حتى سوزانا.. كان لازم واحد فيهم على الأقل يفهم إن حياة واحدة مش كفاية، عشان تحل كل أسرار النجمة وتتفتح البوابة. الموضوع معقد زي ما انت شفت، ومحتاج شغل كتير ووقت طويل جدًا، وماكنش هاينفع غير إن كل واحد يسلم للي بعده عشان يكمل.. بس كلهم اتغرّوا، وكل واحد في اللي ورثوا السر، كان فاهم إنه أشطر من اللي قبله، وإن هو الوحيد اللي يقدر يعملها لوحده"

وتنهدت في عمق ثم قالت..

"من حسن الحظ إني كنت أذكى منهم. وفهمت إنه عشان أنجح لازم تحصل سلسلة طويلة من التسليم والتسلم على مدار كذا جيل.. بعد ما اشتغلت شوية توقعت إن اللي هايورث السر من بعدي هايكمل الشغل، بعدين انتبهت لإني بكرر نفس الغلطة! مين يضمن لي إن اللي هايستلم مني مش هايبدأ من الأول ويرمي كل تعبي زي كل اللي سبقونا ما عملوا؟ من هنا فكرت في واحد يكون عنده إمكانية تحقيق المعادلة دي، يكون عنده الوقت الكافي يعمل كل حاجة، وفي نفس الوقت يكون بيحبني فعلا، ولو كان حب سببه وصفة سحرية مفعولها أبدي!"

ابتسم لها ماريو، فبادلته البسمة وهي تكمل سردها، مداعبة شعره بالطريقة التي تعلم أنه يحبها..

"الخطة كانت جاهزة في دماغي، بس اللورد أصر يختار بنفسه الشخص المناسب لتنفيذ المهمة دي، واختارك. كانت الخطة إننا نروح البلاد التلج دي، ونبدأ شغلنا من هناك، وبعد ما أموت تبدأ انت وتكمل كل حاجة، وفي نفس الوقت تفضل شاغل بالك بيا وهدفك الكبير إنك ترجّعني، عشان لما أرجع أحط بإيدي آخر قطعة في البازل.. والبوابة تتفتح.. واللورد يقدر يعدّي، ويبدأ يسيطر على الأمور بمساعدة جيشي الكبير من الأتباع والموظفين والعمال، وفي خلال أيام يكون قاعد على عرش الكوكب بمنتهى السهولة!"

"بوابة..؟!"

"طبعًا يا حبيبي. انت ماتعرفش أن نجمة الأسرار دي وسيلة لفتح البوابة، ما بين العالم دا والعالم بتاعه، وبعد ما أنطق بتعويذة العبودية، هايقوم كل أتباعي في كل أنحاء العالم ويلبوا الندا.. الأتباع اللي انت جمعتهم لي بنفسك طول السنين والسنين اللي فاتت.. هايكوّنوا شبكة كبيرة قوية، تتحدى أي جيش في العالم بأهم سلاحين، الانتشار والسريّة. ويمهدوا الكوكب لدخول اللورد.. اللي هاييجي لنا ومعاه المجد والقوة والخلاص"

أغمض عينيه بوهن وقال..

" لورا كانت عارفة، إصرارها على نجاح التجربة ماكنش طبيعي خالص.."

"لورا وكل الناس اللي ساعدوك كانوا من جنود اللورد، جنّدهم لمراقبة شغلك، ومساعدتك لو لزم الأمر.."

في اللحظة التالية، انزاحت تلك السحابة الصغيرة التي كانت تظلهم من ضوء القمر الفضي، ليسقط فوق المشهد بالكامل، ويغلفها هي وماريو والشعار / الطلسم بضوئه الرقيق البارد. تناولت ليليان السكين، ومالت لتطبع قبلة على جبين سليم هامسة..

"أنا عارفة إن دا هايوجعك قوي، بس اطمن مش هاتموت.. على الأقل مش دلوقت!"

قال ناظرًا إليها في هيام..

"هاتعملي فيا إيه يا روحي؟"

"تعويذة العبودية، السر الألف.. مش تعويذة بتتقال، هي عبارة عن طقس ضروري لقيام الأتباع، وفتح البوابة. عشان كدا قطعت الصفحة بتاعتها، لأنك لو كنت عرفت، مستحيل كنت تبدأ تدوّر على بقية الأسرار.. بعد تجميع ٩٩٧ طلسم وتحديد الشكل النهائي للمتاهة، الطلسم رقم ٩٩٨ بيكون مسؤول عن أبعاد الرسم، والطلسم قبل الأخير دا بيقول لك تحفر الرسم بالمقاييس دي، على سطح مكشوف ومعرض لضوء القمر. مش دا اللي انت عملته؟"

هز رأسه إيجابًا بلا كلمات، فقالت..

"حلو قوي! آخر خطوة بقى إن الساحر هايستخدم دم حد من الناس اللي بيحبوه، عشان تسيل في ممرات المتاهة وتقفل كل الخطوط، هنا بس الأتباع يقوموا والبوابة تتفتح.."

رمقها للحظات ثم قال بخفوت..

"وانتي ليه هاتعملي فيا كدا.. أنا بحبك وعملت كل دا عشانك!"

قالت متأملة وجهه بحنان..

"أنا عارفة، عشان كدا انت الوحيد المناسب للدور دا! ماتخافش، أنا وعدتك إنك مش هاتموت دلوقت.. مفيش حاجة تخوّف"

بدأت عيناه تدمعان ظلمًا، وقال بينما لم يزل في نفس وضع الرقود الذي اتخذه..

"لأ هاموت، أنا ضيعت كتير قوي من عمري، وأكتر من عمري كمان، عشان أرجّعك من الموت، عشان بحبك.. وانتي عايزة تموتيني"

قالت في تأثر وهي تمسح بأصابعها على وجنته المبتلّة..

"وآديك نجحت أخيرًا، وخلاص أنا جنبك أهو، بتعيّط ليه بس، مش انت عايزني ابقى فرحانة؟"

"بس اللورد قال لي إن حمايته هاتنتهي وأموت، لو حد بيحبني هو اللي قتلني بالقصد.. مش أنا حكيت لك؟"

صمتت لدقائق قبل أن تصرح بلهجة محايدة..

"ماتخافش، قلت لك مش هاتموت! بص.. ضروري تعرف إني لما إديتك الوصفة كنت بنفذ أوامر اللورد، عشان تساعدني في مهمتي، لأني فعلا كنت محتاجة لبني آدم واحد يحبني، عشان يرضى ينفذ خطتي، وآديك كنت شايف.. أخباري كانت مسمّعة في أوروبا كلها.. لدرجة إن الناس كانوا بيقفلوا أبوابهم وشبابيكهم لو سمعوا اسمي! كانوا خايفين حروف اسمي تفسد نفوسهم وتخليهم يقتلوا بعض ويحرقوا المحاصيل

وينتحروا.. نسيت كل دا؟ كان ضروري يبقى فيه واحد على الأقل بيموت فيا، واحد بس في العالم كله كان كفاية بالنسبة لي. وآديك عملت كل حاجة بالظبط زي ما كان نفسي.. ليه مش عايز تتم جميلك للآخر؟!"

صمت من هول الصدمة لدقيقة، قبل أن يقول في النهاية بصوت خافت مرتجف، لم يتخلص من بساطة وطفولية كلماته، بفعل وقوعه تحت سيطرتها..

"معظم اللي قلتيه أنا مافهمتوش، بجد مش عارف أركز. بس سؤال واحد نفسي اسمع إجابته بصراحة.. يعني انتي ماحبيتينش خالص؟"

"ماحصلش خالص، يمكن ليلى داغر حست ناحيتك بالحب لحظة أو اتنين لما كانت بتحس إن مالهاش غيرك.. لكن ليليان فان أورتن، دي عاجزة عن الحب.. هي نفسيتها كدا، يعني الموضوع مش شخصي، صدقني!"

كانت تتكلم ببسمة جميلة وكأنها تفكر في قبول دعوة منه على العشاء..

"لحظة أو اتنين.. كفاية قوي عليا!"

واستنشق جرعة كبيرة من الهواء، ليستطيع كظم مشاعره، قبل أن يكمل بهدوء عجيب وهو يسبل جفنيه..

"اعملي اللي انتي عايزاه، الموضوع بالنسبة لي انتهى خلاص. بس ممكن اطلب منك آخر طلب؟"

قالت بصوت دافئ، وهي تثبت عينيها على عينيه المغلقتين..

"طبعًا.. عايز إيه؟"

نهض جالسًا ببطء، وقال وقد انحشر شيء ما في حلقه، فخرجت الحروف مشحونة بكم هائل من العواطف التي بذل جهدًا رهيبًا في كبتها..

"نفسي أحضنك.. آخر مرة قبل ما امشي! ممكن؟"

تقدمت نحوه وارتمت بين ذراعيه، ليعتصرها بمنتهي الشوق الممتزج بالحزن العميق. ظلت مستكينة بين أحضانه لدقيقة قبل أن يبعدها ليتأمل ملامح وجهها الجميلة الطفولية، ويداعب خصلات شعرها النافرة، ثم يضع على خدها قبلة مبتلة بأثر دموعه. قال وهو يعود لرقاده فوق المتاهة مغمضًا عينيه من جديد..

"عايزك تبقي بخير، وتفرحي.. لو يوم زعلتي، وحسيتي إنك لوحدك، عايزك تفتكري إن كان فيه حد بيحبك أكتر من نفسه، عاش ٣ قرون بحالهم يحلم بيكي، ويدوّر عليكي، ويوم ما يموت.. هايموت وهو بيموت في كل تفصيلة من تفاصيلك"

تأملته للحظات قبل أن ترفع سكينها الحاد، وتتجه به نحو صدره العاري بكل هدوء وثقة..

"أوعدك هافتكر الكلمتين دول!"

أغلق د.سمير الكتاب بقوة، وقد شعر بأنه قد نال من حرقة الدم ما يكفي..

"بس كدا؟!.. (أوعدك هافتكر الكلمتين دول!) وبعدين خلاص؟! بقية الصفحات فيه حد قصّها بالمقص، كأن صاحب الكتاب ماعجبتوش النهاية، فقرر إن كفاية لحَد هنا!"

قال صديقه الدكتور حسن وهو يبتسم مندهشًا..

"أنا قريت الرواية من كتر الزن بتاعك، وعلى فكرة لاقيت النهاية منطقية جدًا.. مش فاهم فين المشكلة؟!"

تأمله سمير ساخطًا..

"أنا عدّيت الصفحات الناقصة من الكتاب، لاقيتهم حاجة وأربعين! فيه كتاب في الدنيا فيه ٤٠ صفحة فاضية؟ أنا دلوقت عايز أعرف الرواية انتهت على إيه، من حق الكاتب يختار بنفسه نهاية أحداث روايته!"

وضع صديقه ساقًا فوق أخرى وقال بجدية..

"ومن حق القارئ إنه يوافق أو يعارض، لاحظ إنه ما رحش للكاتب يناقشه في نهاية القصة، هو اتصرف في حدود حريته الشخصية، وقطع نهاية النسخة بتاعته، عشان يقراها بالشكل اللي يريحه.. يعني ما بوظش كل نسخ الرواية. متهيألي هو ماغلطش للدرجة دي!"

"ما هي دي المشكلة! أنا قلبت الدنيا على نسخة تانية من الرواية دي مالقيتهاش في أي مكان، أنا حاسس إن ماحدش قراها غيري أنا!"

ثم زفر في حنق..

obeikandi.com

"فاكر المشهد اللي الساحرة صحيت فيه من الكابوس وافتكرت كل حاجة؟"

وقلب صفحات الكتاب بحثًا عن صفحة معينة..

" (هناك من يحاول إفساد هذا العمل.. ولا بد من إيقافه بأي ثمن.........) تقدر تقول لي الكلام دا معناه إيه؟! كان المفروض حد يتدخل ويمنعها من المصيبة اللي عايزة تعملها، مش مهم هاينجح ولا لأ.. بس دا ماجتش سيرته في الرواية خالص زي ما انت شفت. تفتكر كانت تقصد مين؟"

"أنا شايف إنك بتحاول تكمل الرواية بنفسك، فكرة حلوة! يمكن ترتاح من وجع القلب اللي انت فيه دا.. لو عايز رأيي كان أسهل لك ترمي الكتاب كله من الشباك وتريح دماغك!"

قال سمير مفكرًا، كأنه لم ينتبه لتعليق صديقه..

"غالبًا هي تقصد الدكتور اللي كان بيعالجها.. هو الوحيد اللي عنده فكرة عن ماضيها ومالوش مصلحة تعمل العَملة المهبّبة دي! بس يا ترى إزاي هايتدخل؟"

وبشرود تناول قلمًا وورقة من فوق مكتبه، وظل يرسم مربعات متداخلة لا نهاية لها، وقد استغرقه التفكير تمامًا. ولدقائق ظل على هذا الوضع، قبل أن يطقطق بلسانه سأمًا وإرهاقًا..

*****

"مكانِك!"

ebeikanar.com

انطلقت الصيحة لتخترق مسامع ليلى، بينما كان نصل سكينها على بعد سنتيمتر واحد من صدر سليم، فالتفتت ببطء لتراه وقد وقف متوترًا، وبين أصابعه استقر مسدس صغير الحجم..

"انت إيه اللي جابك دلوقت، الموضوع انتهى ومفيش قوة على وجه الأرض هاتقدر توقفني!"

"أنا اللي هقف لك يا ليلى! مش هاسمح لك تدمري العالم كله بغبائك"

وأطلق رصاصة مرت على بعد مترين من جسدها، فاتقدت عيناها بنظرة نارية..

"انت حاولت تقتلني دلوقت، ولا أنا تقّلت في الشرب؟!"

ودون أن تتحرك من مكانها، أطلقت نحو سمير لعنة قاتلة على هيئة صاعقة، لكنها توقفت على بعد سنتيمترات منه ثم تشتت في الهواء..

"جربي للصبح لو عندك وقت!"

قالها سمير بصوت محايد، مما جعلها تستشيط غضبًا، وتنهض بشكل مفاجئ صارخة وقد رفعت ذراعيها نحو السماء. ومن كل اتجاه انهالت الصواعق على جسد سمير، الذي عقد ذراعيه بشكل مستفز، تاركًا الدرع الخفي الذي يحيط به من كل اتجاه، يقوم بعمله.

ونهض سليم من مرقده جالسًا ببطء، وهو يسأل مذعورًا كطفل استيقظ فلم يجد أمه بالجوار..

"ليلى.. إيه اللي بيحصل؟!"

obeikandi.com

استنشقت ليلى جرعة كبيرة من الهواء، ونظرت نحو سمير في غل، بينما يعلو صدرها ويهبط. وبعنف رمت السكين على طول ذراعها من فوق السطح، ثم قالت بعنف مشيرة إلى سمير..

"المفروض هو اللي يشرح لنا!"

قال سمير هازًا كتفيه ببساطة دون أن يتخلى عن مسدسه..

"ولا حاجة! كل الحكاية إني قابلت مترجم إيطالي وخليته يفهمني بالظبط إيه اللي دار في جلسة التنويم الإيحائي اللي سجلتها على تليفوني، وعرفت إن الموضوع كله بيدور حوالين تعويذة العبودية. وافتكرت إني قريت الكلمة دي أكتر من مرة في كتاب قديم عندي، رحت قلبت المكتبة على أي حاجة بتتكلم في الموضوع دا لغاية ما لاقيت شرح مبسط للموضوع، أي نعم طلعت عيني بالألماني! بس على الأقل عرفت شوية حاجات سطحية عن الطقوس. حاولت أراقبك ماعرفتش، كنتي بتتوهي مني.. في الأول جالي إحساس إنك ممكن تئذي نفسك، بس بعد كدا اتأكدت إنك هاتعملي مصيبة سودا. المكان استنتجته بسهولة، خصوصًا لما وصلت ومالقيتش حد خالص في المبنى، حتى بتوع الأمن، واتأكدت إن استنتاجي كان صح! بس التوقيت بصراحة هو اللي خد مني وقت لغاية ما عرفت أحسب المواعيد!"

قالت في إرهاق..

"انت مش ساحر، وأنا متأكدة إن ماعندكش أي قدرة على حماية نفسك.. انت إزاي عملت كدا؟"

قال بهدوء..

"أنا ماعملتش حاجة، انتي اللي عملتي! فاكرة يوم ما نسفتي مقر الجمعية؟ أنا ما اتصبتش بخربوش واحد، مع إن المكان كله بقى خرابة، انتي اللي عملتي بيني وبينك رابط يحميني عشان الانفجار ما يقتلنيش، ساعتها أنا عرفت إنك مش مجرد بنت عايزة تفتكر ماضيها، واتأكدت إنك ساحرة تقيلة كمان. عايزة الحق؟ أنا جت عليا لحظة حسيت فيها إني بميل ليكي، بس لما دورت كويس فهمت إن النوع دا من الروابط ساعات ممكن يعمل اختلال في المشاعر بالشكل دا. كان عندي إحساس إن الرابط دا هاينقذني مرة تانية، وآديني طلعت عندي حق كمان مرة زي ما شفتي!"

قالت ليلى في حقد..

"شكلك قريت لك كتابين وفرحان بيهم، بس دا مايمنعش إنك غبي يا دكتور. معنى كلامك إن انت كمان مش هاتقدر تئذيني بالمسدس العبيط دا"

"يمكن لو المسدس في إيدي فعلا هايبقى عندك حق!"

وبحركة سريعة، ألقى بالمسدس نحو سليم الجالس كالمغيب، والذي التقط المسدس فلم يفهم ما المطلوب منه على وجه الدقة..

"هات البتاع دا يا ماريو.. دا خطر، انت فاهم؟!"

رمقها في تساؤل وهو يمد يده إليها بالمسدس..

"لااااا! خلي بالك يا أهبل، دي عايزة تقتلك!"

"مش هاتموت، قلت لك ١٠٠ مرة مش هاتموت، احدفه لي أو ارميه من فوق السطح.. اوعى تديه له!"

"بتضحك عليك يا ماريو، ماتصدقهاش! اقتلها قبل ما تقتلك!"

ظل سليم يقلب بصره بينهما، وقد اعتلت وجهه تعبيرات تنم عن الحيرة والضياع، ثم حدث كل شيء بسرعة. سليم قد استقر رأيه على إعطاء المسدس لزوجته الحبيبة، فتقدم سمير مسرعًا ليحول بينهما، مما جعل ليلى تصرخ غاضبة وهي تسعى نحوهما، وتلقي بإحدى لعناتها على السلاح بنيّة الإطاحة به، فلم تفلح في إصابته. في نفس اللحظة التي يشعر فيها سليم بالخوف إزاء هذا الهجوم المزدوج. مما يجعله يخفي المسدس خلف ظهره، باعدًا إياه عن كليهما. فيتسبب ذلك في جعل اللعنة تصطدم بصدره بشكل مباشر.

لم تقتله اللعنة، لكنها أصابته بآلام رهيبة، أخرجته من حالة السيطرة التي كان واقعًا فيها. سقط على وجهه وهو يصرخ بشدة.

"O figlia di una cagna!"

"سيب المسدس أحسن أخلص عليك.."

صاحت بها بغضب جم، وقد فقدت السيطرة على أعصابها، فأخذت ترميه باللعنة تلو الأخرى في جنون. حتى أنه تمنى من شدة الألم أن تتوقف الحماية ويموت فورًا.

تراجع سمير بخوف شديد وهو يرى سليم يتلوّى ويصرخ على هذا النحو الرهيب، بينما بدت ليلى وكأنها قد أصيبت بجنون تام. فلم تتوقف عن إلقاء اللعنات القاتلة نحوه، إلا عندما اعتدل بعسر شديد مصوبًا المسدس نحوها وهو يصيح..

" Vai all'inferno!"

ثم أفرغ في جسدها رصاصتين، أصابت واحدة منهما منتصف صدرها، في حين مرت الثانية من خلال عنقها وتجاوزته إلى الجهة الأخرى. كانت في تلك اللحظة تقف في منتصف الدائرة تمامًا، فظلت تترنح للحظات وهي ترى دماءها التي سالت لتغرق المتاهة. وكالمذهولة تابعت مسار الدم في المتاهة حتى رأت أن الدائرة قد اكتملت بالفعل من كل جانب بسرعة. قالت مقاومة آلامها، بينما جروحها تلتئم بسرعة كبيرة وبشكل مخيف..

"انت عارف انت عملت إيه يا غبي انت؟!"

ثم انهارت على ركبتيها صارخة وهي تضرب الأرض بكفيها بعنف شديد وتبكي..

"انت بوّظت كل حاجة، كل حاجة باظت بسببك.. بعد الوقت دا كله"

ولدقائق تجمد الموقف تمامًا. سليم ملقى على ظهره في ذهول لا يصدق أنه قد أطلق النار عليها بالفعل. سمير واقف يرمق المشهد مرتعبًا وهو لا يصدق نصف ما يراه، ولا يفهم النصف الآخر. ليلى جاثية على ركبتيها في نفس الوضع رافعة عينيها الدامعتين نحو السماء وقد التأمت إصاباتها تمامًا. وتوقف المشهد للحظات إضافية قليلة، قبل أن يبدأ الهول.

*****

في البداية لاحظ ثلاثتهم أن ثمة توتر عام في الجو، قبل أن تبدأ الأمطار في التساقط. واشتد هطول المطر شيئًا فشيئًا، حتى انتبهوا إلى هذا الصوت المزعج القادم من أعلى.. والتفتوا نحو السماء في ذات الموضع،

مصدر الصوت، ليروا نقطة حمراء صغيرة تنمو من العدم فوق موضع الشعار تمامًا.

نهضت ليلى وهي تصيح في تهلل واستبشار، ملوحة بذراعيها للنقطة الصغيرة التي صارت فجوة متوسطة الحجم، وكأنها تائهة في جزيرة مهجورة، رأت أخيرًا طائرة تحمل علم وطنها. بينما ظل كل من سليم وسمير يتبادلان النظرات المتأرجحة مابين خوف وقلق. ظلت ليلى ترمق الفجوة، في انتظار أن تتسع أكثر، وترى اللورد وأتباعه يمرون من خلالها. لكن شيئًا من هذا لم يحدث، فقط استمر هذا الوضع لثوان قليلة، قبل أن تختفي الفجوة من السماء في لحظة واحدة بصوت انفجار مكتوم، وقد خيل إلى ثلاثتهم أنهم سمعوا صوت صراخ وحشي يصدر عن الفجوة، لم يلبث أن توقف مع اختفائها.

نزلت ليلى بعينيها يائسة، نحو المتاهة الدائرية، لتكتشف أنها قد اختفت هي الأخرى، وقد عاد سطح المبنى سليمًا مستويًا إلا من بضعة حفر صغيرة ناجمة عن لعناتها التي لم تصب أهدافها الحقيقية.

"محاولة تانية لفتح البوابة فشلت، وانت السبب.. بعد كل الزمن دا..!"

همست بها ليلى بصوت خافت للغاية، وهي لم تزل ترمق الأرض في موضع المتاهة المختفية، فلم يفهما من كانت تعني على وجه الدقة. توقفت الأمطار فجأة، تاركة إياهم على هذا الوضع من البلل المختلط بالجنون، ثم نهضت ليلى واقفة على قدميها بصعوبة، وقالت مواجهة سليم، متجاهلة وجود سمير، الذي تنحى إلى مؤخرة المشهد كأنه لم يعد حاضرًا..

"أنت السبب، عارف؟ أنا اتمنيت لك الموت فعلا، بس ماكنتش أقدر بسبب حماية اللورد ليك، هاتشوف دلوقت هو هايتصرف معاك إزاي بسبب دمي اللي سيحته على الأرض، أنا خلاص.. مابقاش عندي حاجة أعملها ولا أقولها غير كلمة واحدة.. تستاهل كل اللي هايجرى لك"

واستدارت متجهة نحو منتصف المكان وهى تهتف..

"**Say Goodbye**!"

لم يفهم سمير. لقد رأى ليلى إذ راحت تدور حول نفسها كالنحلة، وتزداد سرعتها بمرور الوقت حتى لم يعد يرى منها إلا طيفًا مضيئًا، وفتح عينيه على اتساعهما ليتمكن من استيعاب المشهد، الذي تطايرت فيه الأتربة وكتل الخرسانة نتيجة دورانها كالمثقاب. وفي اللحظة التي اختفت فيها من أمام بصره غائصة بقلب الأرض، بدأ يشعر باهتزاز وتخلخل المبنى الذي يقف على سطحه. وقبل النهاية سمع صوت الانفجار الكبير الذي أيقظ الإسكندرية بأسرها.. وبدأ يشعر بأن الأرض من تحت قدميه قد اختفت، وكأنه طائر في الجو للحظات، ثم ساد الظلام فلم يعد لوعيه وجود..

*****

استيقظ.

فوجد أنه يفتح عينيه على عالم عجيب للغاية، شديد الإظلام، عطن الرائحة إلى درجة الشناعة.

obeikandl.com

وتقلصت أنفه بعنف، وهو يدور بعنقه بحثًا عن تفاصيل خيمته التي ألفها، فلم يجد أيًا منها بالمكان. حاول النهوض مفزوعًا، ليكتشف أنه مقيد إلى فراشه الـ.. فراش؟!

لم يكن فراشًا بالمعنى المتعارف عليه، بل كان عبارة عن لوح حجري طويل يشبه المذبح، وكان مقيدًا إليه بسلاسل حديدية غليظة. امتلأ قلبه بالهلع بينما يحاول اختراق حجب الظلام بعينيه الواهنتين، ليتبين أين هو. قبل أن يسمع أصواتًا لحركة وكلمات خافتة تتردد بالخارج..

"لقد استيقظ.. حان الوقت"

كان الصوت مفزعًا للغاية، لا لسبب معين، لكنه وجد نفسه مع كل حرف يبلغ مسامعه، يرتجف، وتنغرس في عظامه برودة مخيفة. وارتجف بدنه بشكل أعنف، حينما سمع صوت الصرير المرتفع لباب حديدي يُفتح..

كان الباب واقعًا خلف رأسه فلم يتبين أي تفاصيل، وبرغم أنه قد فتح عينيه بالفعل، إلا أن ضوءًا ما لم ينجح في التسلل إلى الداخل ولو بنسبة ضئيلة. وشعر بقيوده إذ تنحل بخشونة، قبل أن يُحمل من كتفيه حملاً كالخرقة إلى خارج هذا القبو الرهيب، دون أن يرى أي شيء، ودون كلمة واحدة، لا منه ولا من غيره.

*****

للمرة الثانية يستيقظ ليجد نفسه بهذا المكان.. ليواجه ذات الكيان الشيطاني المخيف.

كان آخر ما يذكره قبل الغيبوبة هو مشهد ليليان وهي تحيل ذاتها إلى قنبلة اخترقت المبنى المكون من ستة وعشرين طابقًا، من السطح حتى أساسات البناء على عمق طابقين تحت الأرض. ربما لاحظ أن ذلك الطبيب الذي يدعى سمير قد طار في الهواء كالكرة، وكان آخر ما رآه منه هو قدميه المعلقتين في الهواء، بينما رأسه المقلوبة تتجه نحو الأرض ببطء.. ثم أظلمت الدنيا أمام ناظريه قبل أن يفيق ليجد ذاته في هذا الموقف من جديد.

"سوف تنال فرصتك كاملة لتحقيق هدفك وهدفنا، ولكن إن فشلت.."

"ماذا ستفعل بي..؟!"

"سيكون لنا لقاء آخر، ولسوف تعلم!"

في توتر تذكر كلمات ذلك الكيان، وقد شعر أن النبوءة قد تحققت، فلم يعد باقيًا إلا أن يعرف نوع العقاب الذي ينتظره..

"اقترب أيها البشري.. لا تخف، فلن أقتلك"

خطوتان وجلتان تقدم بهما نحو العرش الصخري المنحوت بقلب الكهف..

"لقد أخبرتك أنك عائدٌ إلي لا محالة، فلما الخوف؟ أتعلم؟ إنني لست غاضبًا منك على الإطلاق، فلقد أبليت بلاءً حسنًا، وأديت الأمر كما ينبغي.. أهنئك! لا تظن أنك بفعلتك الأخيرة قد أضعت مني فرصة العبور، فإن كان قد ضاع من عمرك ما يعادل عشرة أضعاف منه، في سبيل حل الطلسم، إلا أن ما ضاع مني منذ بدأت دورة توريث (نجمة الأسرار) حتى

الآن، قد يعادل الوقت الذي تقضيه في احتساء كأس من القرفة، أثناء جلوسك في شرفة مكتبك بنيويورك، على ارتفاع مئات الأمتار من سطح الأرض.. فلا قلق هنالك مادامت القرفة متوفرة، أليس كذلك؟!"

هز رأسه مرتجفًا وقد فهم أن الكائن يتلاعب به، قبل الانقضاض. ففضل الصمت منتظرًا الخطوة التالية..

"كنت أتمنى أن أتركك لحالك، تتصرّف كما تشاء، وتقرر الحياة بالطريقة التي تحلو لك. ولكن للأسف الشديد، فإن اسم سليم داغر قد انمحى بالفعل من سجلات التاريخ. لم يعد هناك من يذكر عنك أي شيء، ولا أعتقد أن لديك الفرصة للبدء من جديد. لذا فقد قررت مساعدتك بالطريقة التي رأيتها هي الأنسب. أتعلم؟ ستظل موجودًا، ستنال فرصتك في الحياة من جديد.."

ثم تغيرت لهجته، فجأة لتتساقط الحجارة من سقف الكهف..

"ولكنك لن تحيا كما يحيا البشر بعد الآن.. لن تستطيع أن تجيب من يسألك عن اسمك الحقيقي.. ستظل ملعونًا إلى الأبد.. إلى الأبد.. ستظل ترحل قاطعًا الأرض من المشرق إلى المغرب بلا هدف.. إلى الأبد.. إلى الأبد.. ستظل تحمل فوق كتفيك جرمك، وتحمل أمام عينيك ما أسلت من دماء.. إلى الأبد.. لأنك لن تموت، كما أنك لن تحيا بعد الآن!"

وكان آخر ما سمعه هو جدران الكهف إذ تردد تلك الضحكة الرهيبة من جديد، بعد مرور كل هذا الزمن.. الضحكة التي لم يطلقها أحد.

ورغمًا عنه انطلقت من حلقه صرخة عظيمة، حين بدأ يشعر بوخزات شديدة تغزو كل خلاياه. ثم رأى ذرات جسده آخذة في التفكك رويدًا، حتى بدأ كيانه في الاستحالة إلى تراب. في النهاية توقف كل هذا عندما لم يعد باقيًا منه إلا بضع ذرات، ظلت تطاير يمينًا ويسارًا، حتى اختفي كل أثر له بشكل تام. ولم تنفك جدران الكهف تردد وتردد صوت الضحكات الرهيبة..

*****

"إيه رأيك في النهاية كدا، عجبتك؟!"

ابتسم سمير..

"ساذجة شوية، بس على الأقل ريحتني من التفكير. إنما فيه لسه نقطة صغيرة!"

"مم!"

"الدكتور دا اللي بوظ خطة الساحرة.. يا ترى مصيره كان إيه تفتكر؟!"

تنحنح الرجل وقال متصنعًا الجدية..

"أيوة أيوة، انت تقصد الدكتور اللي.. طيب! ممكن يكون فاق لاقى نفسه مرمي في الشارع مثلا، احنا اتفقنا إن الساحرة مش هاتئذيه، بس غالبًا نسي كل تفاصيل الموضوع، ومش بعيد يكون لم كل حاجته وجه القاهرة وبدأ حياة جديدة.. إيه رأيك؟"

تأمله سمير بنظرة مضحكة..

opeikandu.com

"يا راجل! وإيه اللي يخليه ينقل حياته كلها من اسكندرية للقاهرة، ما دام نسي كل حاجة عن القصة دي؟!"

قال الرجل ناظرًا إلى السقف في تعبير عن الملل..

"هو لازم يكون في تفسير لكل حاجة؟! وانت، إيه اللي خلاك تسيب اسكندرية وتيجي القاهرة فجأة بالشكل دا؟!"

بدا سمير وكأنه قد فقد مرحه فجأة، فتجهم للحظات قبل أن يقول..

"أنا؟ أنا عمي مات من فترة قريبة، وانفصلت عن خطيبتي بعدها على طول، شوية أحداث غريبة ورا بعضها من غير رابط، كأن القدر هو اللي رتب كل حاجة عشان النقلة دي تحصل!"

نهض الرجل مربتًا على كتف سمير في مواساة، قائلا..

"مش لازم تتعب روحك، وتدوّر ورا كل تفصيلة.. مش كل المشاكل لها حلول، ولو لها، مش شرط نلاقيها بنفسنا، حاول تعيش الحياة زي ما هي عشان ماتتعبش.. يالا، أشوفك تاني"

نهض سمير مشيعًا صديقه إلى باب العيادة الجديدة، وقال..

"أنا مستنيك بكرة على العشا، لو اتأخرت انت حر!"

ابتسم الرجل وهز رأسه نازلاً الدرج دون أن يرد. استوثق من أن سمير قد أغلق الباب من خلفه، فتوقف للحظات يستند برأسه على الجدار مجهدًا، وهو يرمق باب عيادة سمير بشيء من العتاب.

وهز رأسه بعنف، كأنه ينفض عنها بعض الذكريات غير السارة، التي اقتحمت رأسه بلا استئذان. ذكريات تخص أناسًا كانوا سعداء، قبل أن

obeikandi.com

تختلف حياتهم بشكل لا يمكن تعويضه، فلا يعود بجانب شقائهم مكانًا لشيء آخر..

ومرت أمام عينيه بسرعة البرق صورة صبي على أعتاب المراهقة، ملامحه طيّبة، بها مسحة من الوسامة، وبعينيه يرمق تلك الفتاة التي تقف بعيدة عنه، بحسنها وسحرها وشرها ورقتها ونظراتها الآسرة.. وتخيل أنه ربما لو كان الفتى قد أدار وجهه في إعراض منذ البداية، لما كان قد حدث ما حدث.

ودمعت مقلتاه للحظة، دون أن يهتم بحقيقة أنه لم يعد يعرف هويته الحقيقية.. ماريو فيبوناتشي..

سليم داغر..

أو حتى حسن عدلي.

إن هي إلا مجرد أسماء ووجوه، لم يعد يهمه أن يحمل منها ما يحمل البشر العاديين.

"ربما لو لم تتدخل فيما لا يعنيك يا دكتور، لما كانت ليليان قد اختفت، ولما لاقيتُ هذا المصير الذي لم أستحقه.. أنا بالفعل لم أستحق هذا، وأنت لم تستحق كذلك أن ترى كل أحبائك وأصدقائك يقتل بعضهم البعض، فتعيش وحيدًا بالنهاية، ولا يعود بوسعك إلا البكاء فوق شواهد قبورهم.. كلانا لم يفعل ما يستوجب هذا، لكننا بشكل ما نستحقه! لا توجد أياد بيضاء في هذا المنجم يا دكتور!"

obeikandi.com

وبمنتهى الاستسلام ترك جسده يتفكك، وتنحلّ ذراته كالغبار، حتى اختفى تمامًا من مكانه، وعاد ليتجسد بداخل عيادة سمير، ولكن في هيئة جديدة مبتكرة..

واندهش سمير عندما رأى ذلك الصندوق الكرتوني يسقط من فوق رف المكتبة تلقائيًا، دون أن يمسسه أحد، فنهض ليتأكد من محتواه، ليكتشف أنه بجانب أكوام الكتب القديمة التي ذخر بها الصندوق، والتي رتبها وجمعها من العيادة القديمة بنفسه، كان هناك كتاب غريب لم يعتقد أنه رآه من قبل. كتاب مغلف بكيس من القماش المخيط شبه المهترئ، بشكل ينم عن طريقة بدائية عجيبة للحفظ. وفوق الغلاف كُتب عليه باللغتين الإنجليزية والعربية بخط شديد الرداءة:

(Don't read this book!)

(لا تقرأ هذا الكتاب!)

ooreikandi.com

القاهرة – ٢٠٠٩

محمد عبد القوي مصيلحي، روائي وقاص مصري من مواليد شبرا الخيمة عام **1986**. درس الحاسب الآلي، وكتب العديد من الروايات، والقصص القصيرة، والمقالات التي نُشر معظمها على صفحات الإنترنت، ومسرحية واحدة. صدرت له المجموعة القصصية (طريق النعناع) في أكتوبر **2011**، وصدرت روايته الأولى (بورتريه) في أكتوبر **2012**.

للتواصل مع المؤلف:

http://www.facebook.com/mamosil7y

mo7ammadamosil7y@gmail.com

mosil7y@yahoo.com

opeikandi.com

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

للنشر والتوزيع

Noon_publishing@yahoo.com

ت-٠٢-٣٥٨٦٠٣٧٢ ٠١١-٢٧٧٧٢٠٠٧

obeikandi.com

obeikandl.com